جسَدان
فِي المَرقص

جسدان في المرقص

محمد سالم المهدي

قصص قصيرة

ISBN 9789776597565
Deposit number: 4488/2021

© Willows House 2021

الطبعة الأولى: 2021 منشورات ويلوز - جوبا

جميع حقوق النشر محفوظة للناشر، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة، إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله، بأي شكل أو واسطة من وسائط نقل المعلومات، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين أو الاسترجاع، دون إذن خطّيّ من الناشر.

All copyrights are reserved to the publisher, and no person, institution or entity has the right to reissue this book, or part of it, or transfer it, in any form or medium of information transmission, whether electronic or mechanical, including copying, recording or storing Or, without written permission from the publisher

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها ولا تعبر بالضرورة عن رأي النّاشر

Willows House
منشورات
ويلوز هاوس

جنوب السودان، جوبا، كاتور، مربع ٨ جوار مركز جيران

www.willowshouse.net
www.jubabok.com
gatawillow@gmail.com
willowshouse3@gmail.com
+211927302302

محمد سالم المَهدي

جسَدان في المَرقص

Willows House
منشـــورات
ويلوز هاوس

الرقاب الكوزموبوليتانية

لم تتوقف الرقبة لمدة أسبوعٍ كاملٍ عن الطيران. حاولتْ عدة مرات أن تستريح من المعركة التي دخلتها دون علمها لكن بغير فائدة .. ظلت الرقبة تلف وتدور في الفلوات العالمية الواسعة حتى أنها عَشِقت رقبة أخرى كانت تطير بالقرب منها.

قالت الرقبة للرقبة الأخرى:

ـ من أي جيشٍ أنت.. من قطع حلقومك الجميل.

لكن الرقبة المخاطبة كانت بكماء؛ مما سَرَّع وتيرة الغضب لدى الرقبة الطائرة، حيث رأت أنه من غير الممكن للإنسان ألا يردُ على أخيه الإنسان؛ حتى إذا كانا في عالم الموت فهذا ليس سبباً مقنعاً للصمت.

هزَّت الرقبة البكماء رأسها، حركته بسرعة في إتجاهات متفرقة .. كانت تود قول شيء يدركه البُكّم .. شيء واضح ومصقول بدقة في دماغها لكنه عاجز عن أن يصير كلاماً يتعلق بالحياة

.. عاجـز عـن الدخـول في حلبـة الفهـم الطامحـة بدمـاء المصروعـين.

كانـت تراقـب صـوت الرقبـة الطائـرة، تنظـر لعينيهـا وتمتلـئ بالـكلام.. بفيـوض مـن المشـاعر المنتظمـة وغـير المنتظمـة .. كانـت تصـل إلى حقيقـة مفادهـا أن القتـل لا يجـدي نفعـاً الآن وأن الرقبـة الأُخـرى ذات الوجـه المغسـول بالحليـب لـن تسـتطيع فعـل شيء لتوضيـح غضبهـا، فرغـماً عـن كونـه غضبـاً واضحـاً في الوجـه والعـين إلا أنـه لا يسـتطيع أن يُنفـذ التعليـمات الآن.. لا يسـتطيع إيجـاد حيـاة لـه داخـل هـذه الحيـاة .. داخـل المـوت الـذي دخلـت فيـه الرقبتـان.

كانـت الظـروف غـير مواتيـة للنقـاش .. كانـت معـاول الوقـت تتعـاون مـع الطيـور الجارحـة لحصـد حيـاة الرقبتـين المختلطتـين بالرصـاص والقنابـل الهيدروجينيـة وكأنهـما مصنوعتـان منـه، وكان كل شيء يختلـف عـما كان عليـه اختلافـاً كليـاً وشـاملاً. هـذه الحياة كلهـا منـذ ميلادهـا وحتـى الآن تبـدو غـير معهـودة للرقبتـين.

في يومهـا الأول داخـل المـوت لم تفهـم الرقبـة ما القصد مـن نهوضها في الصبـاح الباكـر، فهـي عندمـا كانـت تمتلـك جسـداً بكاملـه لم تكـن تفعـل ذلـك .. كانـت تصحـو متأخـرة بعـد أن تقـوم بحسـاب

عـدد المـوتى مـن الجيشـين.

ـ حسـناً،لقد نسـفت قنبلتنـا ٤ آلاف جسـد .. رصاصهـم حصـد ثمانيـة شـهداء مـن جيشـنا.

يقول جسد الرقبة بينه وبين وعيه الحربي:

ـ يـا لهـا مـن نتيجـة مخيبة..كنـا نتوقـع أن تحصـدُ القنبلـة ١٠ آلاف جسـد عـلى الأقـل .. لقـد خسرنـا نصـف قنبلـة .. يـا لعارنـا.

في بدايـة رحلتهـا لم تعـرف الرقبـة الطائـرة إلى أي بلـد تنتمـي وبمـا أنهـا مـا زالـت قـادرة عـلى الفهـم والتحليـل بعكـس الرقبـة البكـماء؛ فقـد عـزت السـبب إلى اختـلاط الدمـاء الـذي حصـل في المكـب الـذي دحرجـت عليـه جثـث الجنـود المخلصـين إلى منفاهـا الأخير.لكـن مـا يثـير الريبـة أن لا انتماءهـا قـد تشـكل ليصبـح جزءاً مـن نتائـج الحـرب؛ فالرقبـة الآن مجنونـة بإدراكهـا لحقيقـة أن العـالم هـو فريـق كـرة قـدم يلعـب بـلا حـارس وأن المرمـى مفتـوح للتسـديد ومـع ذلـك لا أهـداف تتحقـق.. لا شيء سـوى أنهـا قـد غـادرت المكـب دون جسـدها والآن تحلـق عـلى بعـد عـشر كيلومـترات مـن سـطح الأرض وتسـتغرب للضآلـة الجسـدية للبـشر وتراهـم رقابـاً مثلهـا مـن فـرط الضآلـة .. تـرى أحلامـاً وصراعـات

ورغبة في العودة إلى الطفولة .. تراهم وهم راغبون في عكس طريق سير الحياة.

وهم هاهنا في الأسفل يرون من فوقهم كرة سلة محلقة محمولة على ساعد لاعب غير مرئي لفرط طوله.. يرونها ويظنونها وهماً، وتراها جدتها .. ترى جدة الرقبة الرقبة، صائحة بصوت طفولي:

ـ هذا ولدي.. هذا حبيبي صموئيل.. أنا لا أخطئه.

و قد اعتبر الجميع بعد ذلك الصياح المُحِب أنها مخرفة.. لقد كانوا مؤمنين بخرفها وجاء ذلك الصياح كإشارة تأكيد حاسمة ليأخذوها إلى مصحة الذاهبين إلى الموت وكأنهم كانوا ينتظرون سبباً ليفعلوا ذلك.

ومن تلك المصحة العقلية المفتوحة على باب السماء ظلت الجدة تتأمل الرقبة الطائرة لحفيدها الذي لو كان موجوداً لما سمح بالمجيء بها إلى هنا كما ذكرت ذلك عدة مرات. كانت تراقب الرقبة لأسبوع كامل وكانت رقبة مثل القمر، فرغم قطعها لبلدانٍ كثيرة.. بل رغم عبورها لقارتين، ظلت مرئية لدى كل فرد في العالم؛ حتى أن العميان أحسوا بملمس ضيائها

عـلى أجسـادهم.

في اليـوم الخامـس كانـت الرقبـة قـد مـرت بأوربـا وشرق آسـيا وبالأمريكتـين والصـين وغسـلت نفسـها لمـدة سـاعتين مـن مـاء البحـر المتوسـط الـذي تحـول لونـه مـن فـرط دمهـا المـضيء. وفي مـا بعـد جففـت نفسـها بالأقمشـة المعروضـة بإهـمال عـلى رصيـف جامـع الخرطـوم الكبـير واسـتغرب الفقـراء الذيـن اشـتروا تلـك الملابـس كيـف أنهـا ذات ملامـح هيدروجينيـة وكيـف أنهـا ملابـس ملونـة بلـون لم يـروه مـن قبـل، لقـد قالـوا إنـه أبيـض يميـل إلى السـواد.. مسـتدركين أنـه أحمـر مخلـوط بمـاء الـورد وصـدأ الحضـارات والرمـاد.. منتهـين إلى أنـه لـون بـلا لـون؛ مثـل اللاوعـي.

وفي اليـوم السـابع كانـت جـدة الرقبـة تُفكـر في «صموئيلها»..كانـت تقول:

ـ كان ولـداً ذكيـاً مهذبـاً .. لقـد أحـب الشـعائر الدينيـة في صغـره.. لقـد كان نعـم الولـد، لابـد أن عينـاً شريـرة قـد أصابته..لابـد أن المجموعـة العسـكرية التـي تـزوره بعـد العمـل قـد وسوسـت في رأسـه؛ فحتـى عهـديَّ القريـب بـه كان رجـلاً طيبـاً لم أتوقـع أن تصـل طموحاتـه لدرجـة قيـادة الجبهـة الهيدروجينيـة.

وفي اليـوم السـابع نفسـه كانـت جـدة الرقبـة البكـماء التـي تسـكن في أطـراف الخرطـوم ولا علـم لهـا بحيـاة جـدة الرقبـة الطائـرة التـي تسـكن في إحـدى مصحـات باريـس المأهولـة بكبـار السـن، كانـت تنـير عتمـة بكائهـا بـ(محمدهـا الشـاطر).. كانـت تـراه وهـو يحصـد حياتـه يومـاً تلـو الآخـر.. في يـوم كـذا أحـب الجيـش وفي يـوم آخـر دخلـه.. وآخـر الأمـر اسـتقر عـلى أن يتحـرر مـن كل قيـد وينـشيء جبهتـه الحربيـة المسـتقلة.

بكـت الجـدة عـلى الجسـد الـذي كان وعلى الرقبـة التـي تحلق الآن فوقهـا.. كانـت دموعهـا تسـتدين مـن النهـر مـاءً.. كانـت تسـقط عـلى الأرض فتجعلهـا أكـثر شـباباً وخصوبـةً وعذريـةً حتـى أنهـا عـادت طفلـة هشـة كـما عرفتهـا أول قـدم بشريـة .. والآن هـي فارغـة .. خاليـة مـن البـشر تمامـاً .. لا شيء في العـالم سـوى الرقبتـين القمريـن اللتـين تتناوبـان ورديـة إضـاءة العـالم.

الأخطاء البشرية

تعـرَّض الولـد الكبـير لأسـوأ أنـواع الاسـتغلال. في بدايـة الأمـر اسـتخدمته القابلـة كمعيـارٍ لقيـاس جـودة أدائهـا العمـلي ثـم اسـتمرت المسـيرة الاسـتغلالية. كانـت الممرضـة ترفـض أن يتـم تحويلهـا مـن قسـم العمليـات المسـتعجلة إلى قسـم العمليـات البـاردة؛ تلـك العمليـات التـي وصفتهـا بقولهـا:

ـ هذه ليست عمليات .. إنها مجرد استضافة لمدَّعي المرض.

ولكـن حُسـم النقـاش بـأن تـم نقلهـا إلى قسـم العمليـات البـاردة وهـي بدورهـا قـادت حملـة ضـد التسـلط الإداري المتفـشي في المؤسسـة الطبيـة وكان تمردهـا غـير مسـؤول .. تمـرد لم يحـدد مطالبـه ويصقلهـا بالتواصـل مـع الأطـراف الأخـرى .. لقـد كان تمـرداً فحسـب؛ إلا أنـه كان سريـع الانتشـار .. صـار الجميـع بـين ليلـة وضحاهـا؛ بـين كلمـة وشـفاهها يملـكُ فكـرة عـن فسـاد المؤسسـة .. المؤسسـة التـي كانـت قبـل أيـام قليلـة جنـة فردوسـية خالصـة بالنسـبة لهـم؛ صـارت في سـاعات قليلـة مؤسسـة تافهـة ولا تسـتحق.كأن القابلـة قـد وجهـت وجههـم نحـو الاتجـاه الآخـر

الـذي يتناسـونه..كأنها رمـت بحجـرٍ في البركـة المتحركـة مسـبقاً. البركـة السـائرة في اتجاهـات متفرقـة، هـا هـي توحـد إتجاههـا بكلمـة واحـدة، بسـخطٍ واحـدٍ مسـتمر، بظلـمٍ واحـدٍ تـوزع مـن فـرط ثقلـه عـلى ظهـر الجماعـة.

كان الظلـم يمـشي وحـده .. يهـرول ويـترك قلـب القابلـة متجهـاً إلى القلـوب الأخـرى. والغريـب؛ الغريـب جـداً مـا لاحظـه الكائـن الداخـلي لـكل فـردٍ منهـم.

لاحـظ الكائـن الخارجـي الـذي يحـكي قصـة النـاس الذيـن مـن حولـه أن الظلـم كلـما ابتعـد عـن القابلـة تزايـد. وكلـما اقـترب مـن الآذان التـي تسـمعه تناقـص. ظـل الظلـم يتعـثر بـالآذان ويمَّحـى مـن الكيانـات التـي يصطـدم بهـا؛ فمجـرد إدراك الآذان أنهـا مظلومـة يجعلهـا غـير مظلومـة لأن الظلـم في أساسـه كـما قالـت الممرضـة:

ـ يكمن في الجهل..في الجهلِ و عدم الإدراك.

صـارت كلُّ الكيانـات الوظيفيـة بالمؤسسـة واعيـة بمشـكلاتها إلى حـدٍ بعيـد حتـى المـرضى الذيـن صـادف وجودهـم لحظـة إلقـاء المظلمـة الخطابيـة صـاروا واعـين بمشـكلاتهم الصحيـة والنفسـية

والعمليـة و لم يعـودوا مـرضى كـما كانـوا في البدايـة.

وبعـد أن ألقـت الممرضـة مظلمتهـا تحولـت إلى وظيفـة أخـرى. قبـل ذلـك كانـت مجـرد مسـاعدة صغـيرة في قسـم العمليـات الطارئـة ولأن التمـرد النابـع مـن بحـر عظامهـا الناشـف كان أقـسى مـن أن تحتملـه خـبرات المديـر الجديـد؛ فقـد تـم احتـواء ضجيجهـا حتـى لا يؤثـر عـلى وعـي الموظفـين. وفي صفقـة داخليـة عُيِّنـت الممرضـة المتمـردة في وظيفـة مطلقـة .. وظيفـة بـلا مسـمى.

قال المدير اللاخبير:

ـ لا نريد مشكلات..هذه قائمة الوظائف..اختاري.

بـدأت في تمريـر إصبعهـا عـلى الوظائـف واحـدة تلو الأخـرى وكانت تلعـن جهلهـا بالقـراءة كلـما وضعـت إصبعهـا عـلى واحـدة. قالـت بينهـا و بـين نفسـها الجاهلـة بالقـراءة؛ سـأختار الوظيفـة الأكـبر .. تقصـد الأطـول في القائمـة؛ الوظيفـة التـي يفـوق عـدد كلماتهـا عـدد كلـمات الوظائـف الأخـرى؛ فهـي إن كانـت جاهلـة بالقـراءة فهـذا لا يعنـي عـدم معرفتهـا بالقيـاس فهـذه أشـياء واضحـة.. تلـك الجملـة أطـول مـن تلـك و هـذه أقـصر. لا أحـد يخطـئ في ذلـك.

وهـي عـلى معرفتهـا العامـة الممتـازة تمتلـك عقـلاً متمـرداً.. وعـيٌ بـلا قـراءة؛ إنـه ليـس بوعـي و إنمـا طاقـة دماغيـة تائهـة في ملكوت التحقـق.. أيُّ تحقـق يكـون؛ لا يهـم.

ـ يا مدير..اخترت رقم ٢.

ـ أووووه..لا لا،هذه غير ممكنة.

ـ تمام..اخترت رقم ٥.

ـ أمممم،المديـر العـام للقطـاع الطبي..هـذه مستحيلة..مسـتحيلة جـداً.

ـ تمام، اخترت رقم ٨ ومش حأغيرها.

ـ أووووف، كبـيرة القابـلات،لا بـأس، أشرعـي في تسـلم المهـام منـذ الغـد.

كان الولـد الكبـير نائمـاً في بطـن أمـه يُحـصي الأخطـاء البشريـة التـي أضـاءت الحيـاة .. أضـاءت الجحيـم فاشـتعل أكـثر .. أضـاءت العيـون فلـم تعـرف ذاتهـا الغارقـة في الغـرق .. في ذاك المشـهد الواحـد المتكـرر .. المشـهد الـذي بـدأه دمـاغ الولـد في لا تشـكله وسـار بـه حتـى موعـد ميـلاده.

ساهمت المفاوضات التي تم انعقادها في عودة الموظفين إلى لا وعيهم الراسخ وبذات القدر في ثقب جمجمة الولد الكبير. ولأن القابلة المسؤولة عن الثقب أثبتت أمام الهيئة القضائية أنها غير مسؤولة عنه إطلاقاً، فهي قد نفذت الموجهات التي أملتها عليها كبيرتها .. كما أضافت بكامل غضبها:

ـ على الآخرين تحمل نتائج أفعالهم .. أنا لا أتحمل أخطاء الآخرين.

الفوضى الطفولية التي انتظمت شوارع الجنة أصبحت غير محتملة؛ بجانب أن الولد الكبير ذو الجمجمة المثقوبة كان يحتجُ على قدره الذي عُرض عليه قبل صرخة الميلاد وقال كما قالت القابلة غير المسؤولة:

ـ لن أنزل الأرض .. لن أترك الجنة .. أنا غير مسؤول عن أخطاء الآخرين.

وبينما كان الراوي يحاول جمع المعلومات من هنا وهناك؛ ظهرت نجمة كبيرة وأخرى صغيرة وثالثة غير مرئية.

سارت النجمات الثلاث وسط العتمة العالمية المستقرة وكن

يُضِئنَ أكثر كلما تقدمن إلى الأسفل..كان ضوء النجمات يُشعل الأشياء من حوله و يحولها إلى بصيرة عمياء تنبع من الخارج.. كان الاستغلال متمدداً في مسيرته العالمية حيث طلبت الدولة التي قصدتها أسرة الولد الكبير كلاجئين من أجل العلاج؛ طلبوا من والد الولد الكبير أن يتبرع كل فرد من الأسرة بكلية سليمة.

وهكذا كان الناتج الكلي للكلى خمس كلى. وجاء نصُ الاستغلال كالتالي:

(أُقر أنا السيد «م.ن.ع» بأن يتبرع كل فرد من أسرتي بكلية واحدة فقط،بما في ذلك الولد الكبير الذي تُجرى له العملية مقابل كُلانا .. علاوة على أن كل مولود يأتي من صلبي إلى الحياة سيتبرع بكلية واحدة لا غير. وذلك مقابل وجودنا كمواطنين مؤقتين في هذه البلد .. كما أنني ألتزم بقانون النسل الحضاري وسوف لن ألدُ سوى طفلين على الأكثر)

في ما بعد تعرَّض الولد الكبير ذو الجمجمة المثقوبة بعد أن صار كبيراً حقاً إلى ثالث استغلال في حياته .. قتله أخواه؛ وقالوا أمام محكمة العدل العالمية:

ـ نحن لا نتحمل أخطاء الآخرين.

المحارب في صالة العرض

مـن المفـترض أن أحـكي لكـم عـن المعركـة الأخـيرة التـي خاضهـا جيشـنا ضـد جيـش الغربـاء لكـن ذكراهـا تقـف بمنطقـة الـذروة في دماغـي وهـي معركـة لم يمـر عليهـا الزمـن حتـى تختلـط بكيـاني الكامـل وتصـير قصـة ذات معنـى. كـما أن ضمـيري لا يسـتطيع الفصـل بـين كونـه يريـد أن يحـكي القصـة حتـى تصـير متداولـة وخالـدة،و كونـه يحكيهـا ليتخلـص منهـا.و هـذا الضمـير هـو شيء غـير مفهـوم لأنـه يحاكـم نفسـه و هـو في السـابق،يحاكم نفسـه و هـي متجهـة للحريـة و التخفـف مـن الذكـرى و يحاكـم النـاس لأنهـم غـير قادريـن عـلى الاسـتجابة لمحاكماتـه.

وهـو ضمـيري الـذي يتفصـد مـن شـدة صرامتـه و ضعفـه و يختبـئ منـي لأنـه لا يريـد الإفصاح؛فمـن قبـل لم يكـن مـن عاداتنـا نحـن جيـش البلـد الكبـير أن نحـكي عـن مـن ماتـوا في الحـرب أو نسـتعيد صورهـم كأبطـال أقويـاء، كنَّـا فقـط نهيـل عليهـم الجثـث الأخـرى و التراب؛لكـن عـلى أحدنـا أن يكـسر هـذه القاعـدة ويسـمح لطاقـة الحـزن بالتحـرر. فمـع أن هـذه القاعـدة ليسـت قاعـدة

بالمعنى الرسمي للكلمة إلا أن الجميع يتدرب على حفظها دون أن يخبره سابق له بمعناها،فالكل هنا يفتقدون شجاعة البدء والمبادرة. أن تحكي عن الموتى دون الشعور بأنك طرف في عملية قتلهم، وأن تنسى أنك أنت من حمستهم ليدخلوا إلى الميادين و يحققوا ذواتهم الدموية و يجددونها،و أن تنسى أنهم يسمعونك في مدافنهم؛ ولكي تتخلص من كل هذا فأنت بحاجة إلى شخص من زمن آخر لتحكي له عن زمن آخر.. شخص لم يحضر المعركة..شخص محايد و أعتقد أنكم كذلك.

فلنبدأ الحكاية إذاً جمهورنا العزيز:

تمت مهادنة صغيرة قبل خوضنا لتلك المعركة.كانت مهادنة أشبه بأن يستمع المرء لأغنية لا يحبها؛ لذلك لم يهتم الجنود لها حتى أن بعضهم قرر أن يتم قتل قادة الجيشين لأجل مواصلة الحرب اللذيذة دون انقطاع و هذا الرأي الأخير قد لاقى هوى في نفسي،و هذا الهوى الذي يشبه الهواء لا يزال يخرج من أنفي كعاصفة من الندم.يغشى عيني كرمل من بلاد لا أعرفها و لا تعرفني؛ثم يعود مرة أخرى و يستقر في النفس و يتكاثف مدمراً إياها.و لأجل كل هذا عليَّ أن أنسى..أبدِّل حياتي

بمـاضٍ غـير ماضيهـا و أصـير مـلاكاً محايـداً يحـكي.

انتهـت المهادنـة بغتـة قبـل أن تبدأ.بينـما نحـن ننتظـر النتائـج أطلـق القـادة الرصـاص عـلى بعضهم..قامـت الدنيـا في حلـق كل الجنـود و دارت الحـرب في غـير مواقيتهـا.

أنـا أطلقـت الرصـاص عـلى أخويـن كان كل واحـد منهـما يحمـي الآخـر و لا يريـد لـه المـوت .. أطلقـت النـار لمرتـين في الفـراغ و إلى اليـوم ينتابنـي حـزن لجهـلي بفـن التصويب؛لكـن مـا أفتخـر بـه حقـاً هـو مسـامحتي لقتيـل أخـبرني بكونـه مُسـاق بالقـوة و ليـس لـه يـد و لا سـلاح و لا ناقـة في هـذا المـوت المتبـادل المتفـق عليه؛لكننـي اليـوم سـاخر وحزيـن أيضـاً لأن هـذا القتيـل قـد قتلـه جنـدي لـه نفـس المواصفـات.

و أنـا أحـكي كل هـذا بـدلاً مـن البـكاء.أورد هـذه الأمـور مـن أجـل سـلامتي النفسـية و العقليـة؛ فهـي أمـور تحـوي خواطـر لا تحتمـل الكتمان.ففـي الحـرب يخطـر لي خاطـر:

أريـد أن أقتـل أكـبر عـدد مـن الأعـداء حتـى لا أخـاف مـن ملـك المـوت حينـما يأتينـي..أود السـيطرة عـلى مشـاعر العبـث الـذي

صـار واقعـاً الآن.

في خاطري أن أتصل بأمهات الموتى و أخبرهم:

ـ انتهت المسألة..تبخَّر ابنكم السيد(.....).

و كـم سـيكون هـذا جميلاً،لذيـذاً وباعثـاً عـلى الفخـر بالنفـس،إذ يبـدو لي كـما لـو أننـي أقاتـل في موقعتـين في الوقـت ذاته..أنسـف روحـاً هنـا و أنسـف روحـاً هنـاك.

ولكـن بالنظـر إلى أن نفـسي نفسـها مـا عـادت موجـودة الآن،فـإن هـذا كلـه يبـدو لي مبرراً..يبـدو واضحـاً مثـل حلـم المحـارب بالعودة بعـد الموت..غريبـاً كـروح تجلـس في غـير موضعهـا عـلى رف الأرواح المزدحـم و بليغـاً كجسـد غادرتـه الحيـاة.

والآن أراني خـارج كل هـذا.أرى شـفتي الراقصـة ترضـع مـن ثـدي الحـرب و أراني مثـل قمـر تخلـص مـن عتمـة روحـه بالضيـاء.. مشـاعري في هـذه اللحظـة تشـعر بالتقديـر كـما لـو أنهـا في صالـة عـرض مفتوحـة عـلى كل العالم،تنحنـي لجمهورهـا و تقـول:

ـ أشكركم على حسن الاستماع.

الموت مع الجماعة عرس

لن أصحو من النوم.

سوف أنام لعدة أيام لاحقة بلا انقطاع .. أنا الآن في النوم ولا أريد أن أفيق؛إذا أفقت سيطلب مني أبي أن أحمل سلاحي وأذهب إلى الجبهة حيث يُصنع الرجال الحقيقيون؛ وكنت قد أخبرت والدي و كل الأسرة أنني لا أريد أن أكون رجلاً أصلاً؛ أود أن أظل هكذا طفل لا مبال و يحب النوم.

و هاهنا لدينا عقيدة في بلدنا المحارب..اسمها عقيدة النوم واليقظة والموت والانبعاث؛ وهي تمنع أن نوقظ نائماً مهما كانت الأسباب و يظن الناس أن إيقاظ النائم يساوي أن يوقظ المرء الملائكة المسؤولين عن القيامة و هذا فعل بشع لا أحد يغفره هنا.. القيامة نفسها لا تقبل أن يشاركها أحد في عملها.. في البعث.

وأنا أستغل هذه النقطة..أخلد إلى النوم و أمثل بأنني غارق فيه..أراقب القادمين و أخلد..أغمض عيني و أقتل حركة الجسد

والارتعاش و أمشي إلى موتي الصغير و هكذا صرت لا أفرق بين كوني حاضراً في عالم الوعي أو في عالم الغياب؛و لأتأكد من هذا الأمر أطفأت نور الغرفة ولكن دون أن يحس أحد،فإذا أحسوا سيسألون عن من أطفأ النور..سيقولون ها هو يخدعنا و يبني جسوراً بيننا و بينه وبين الحرب و العقائد..إنه استغلالي.

و لأتجنب كل هذا قررت الرجوع عن قراري.لن أطفئ نور الغرفة؛و بما أنني كنت قد أطفأته مسبقاً فقد لاح لي أن هذه الحياة غير مجدية..حياة بلا معنى..إلى متى سأستمر في هذه المسرحية..مسرحية الموت القصير المتقطع.لابد أن هنالك أولاداً كثر يفعلون هذا لأجل النجاة من الموت..و آخرون يفرون من المعارك..و آخرون يفرون من المعارك أيضاً و لكنهم يقضون بقية حياتهم في التبرير لكل من يلاقونه و يصل بهم الأمر إلى الجنون.و هنا لابد من ذكر حكاية شهيرة لمجنون كان يحوم في مدينتنا و يكرر بشكل مستمر:

(تراجعت ليس لأنني أخاف الجنود و لكن لأن الجنود يخافون من وجود أشخاص يحبون الحياة مثلي..تراجعت لأنني تراجعت..لأنني أردت ذلك و الإرادة لا تكذب..الإرادة هي سنة

اللـه و رسـوله و سـنة الطبيعـة و سـنة النـاس و أنـا واحـد مـن هـؤلاء الناس..أنـا واحـد مـن النـاس يـا بسـشر هـووووووي)

وأنـا عـن نفـسي لا أحتـاج أن أبـرر للنـاس هـروبي لأنهـم منـذ زمـن بعيـد كانـوا قـد اعتـبروني غـير موجـود و بـلا فائـدة،و بالفعـل أنـا بـلا فائـدة في هـذا المكان..مهمتـي هـي قـراءة الروايـات و بالطبـع لـدي آمـال تتعلـق بكتابتهـا و قـد أخـبرني أبي و معـه الأسرة بتلميحـات خفيـة و ماكـرة بأننـي غـير منتـج و أننـي أبـدو كمـن ينظـر للعـالم بثـلاث أعـين؛و أننـي أرى أشـياء لا وجود لهـا و أتحدث عـن موضوعـات لا تناسـب حياتنـا الراهنـة و أناقـش أفـكاراً لا علاقـة لهـا بالحيـاة التـي تعنـي العقيدة..العقيـدة بالنسـبة لهـم هـي الحيـاة و لكـن بالنسـبة لي الحيـاة هـي العقيـدة..أن أعيـش و أحلـم و أشـارك.

و هكـذا يبـدو أن المطلـوب منـي هـو اقتـلاع هـذه العـين الثالثـة. أُحـضر سـكيناً و أخرجهـا ثـم أذهـب إلى عامـل الصيانـة مـن أجـل لحمهـا و تسـويتها عـبر الصـودا الكاويـة.و تبـدو كل هـذه الخطـوات سـهلة و لكـن عندمـا أنهـي كل هـذه المهـام سـيطلب منـي عامـل الصيانـة أن أعطيـه هـذه العـين كهدية؛فهـو قـد فقـد

عينـه في الحـرب الفائتـة و إنـه ليتحـسر أشـد الحـسرة لأنـه قـام بنفـس عمليتـي مـن قبل..يقـول إنـه لـولا إجـراؤه لتلـك العمليـة لاسـتفاد الآن مـن عينـه الثالثـة و لحلـت مـكان العـين المفقـودة بـكل سـهولة ويسر.لكـن يبـدو أن الأشـياء لا تعوض..حينـما تفقـد طريقـاً فإنـك تفقـده إلى الأبد..حينـما تفقـد حبيبـاً فإنـك تفقـده إلى الأبـد و لـن تـراه مـرة أخـرى في شـخص آخـر، و عندمـا يتمـزق حـذاؤك فـما مـن مجـال لاسـتعماله مـرة أخـرى،و هكـذا فـكل شيء في العـالم ذو مسـتوى واحـد داخـل الرؤيـة المجـردة للعـالم نفسـه؛و مـن هنـا مـا مـن مجـال للقـول إنـه لـو لم يقتلـع عينـه الثالثـة لمـا ضاعـت العـين الثانيـة و أنـا عـن نفـسي عندمـا أنـام ينصـب تفكـيري عـلى هـذه الأشـياء التـي لا تصـب عـلى نهـر بعينه..أحـاول أن أربـط بـين عـوالم متفرقة..بـين الجنـون و الحيـاة و المـوت و القيامـة؛و هـي أمـور لا علاقـة واضحـة بينهـا سـوى أنهـا جميعهـا قـد سـاهمت في خلـق هـذه الحالة..حالتـي.

مـن يـراني يظـن أننـي عامـل في مصنـع النـوم و مـن ينظـر إلى حالتـي بتمعـن يظـن أننـي فـلاح في حقـول الخلـود يحصـد بـذور روحـه الشـهيدة و يرفـض أن يزرعهـا في أحـواض الدمـاء. مـن يفكـر

في شـأني بفهـم و درايـة سـيدرك أننـي لسـت ذاك الشـخص الـذي كان يحـب الفـداء و المـوت في البدايـة عندمـا كانـت البـلاد في أوج البربوغانـدا و الإعلانـات الحربيـة و الدفـاع عـن العقائد،حينـما كان النـاس كلهـم شـخص واحـد اسـمه الدفـاع عـن العقائـد،و هـو شـخص لا يمـوت أبـداً لأنـه غـير موجـود أصـلاً.

في البدايـة كنـت أحـب المـوت جـداً.كان ذلـك في زمـن الطفولـة حينـما سـمعت مـن أبي أن الشـهداء يدخلـون الجنـة و أنهـم لا يحاسـبون و أن المـوت مـع الجماعـة عرس.لكـن كل هـذه الأشـياء تغـيرت الآن حتـى أننـي لا أعـرف مـا معنـى العـرس في هـذه اللحظـة..أن يـترك الإنسـان حياتـه و يذهـب للمـوت برجليـه ثـم ينجـب أطفـالاً سـيقاتلون في الجبهـات و يموتـون مثله..سـيترك زوجـة أرملـة وراءه و لـكل هـذا لـن أتزوج..لـن أنهـض لأجـل الحـرب و لـن أشـارك في هـذه المقطوعـة الموسـيقية العشـوائية التـي يعـزف فيهـا كل عـازف آلتـه دون أن يفهـم تاريخهـا و دورهـا داخـل المقطوعـة الكاملة..داخـل النفـس و العـالم.

الحلم و اللغات

لـدي حلـم بالعـودة. أذهـب إلى هنـاك وأبـدأ صفحـة جديـدة في كتـاب حيـاتي الـذي كنـت قـد أغلقتـه وهاجـرت إلى هنـا .. حلـم غـير واضـح ولكنـه حقيقـي ويمثلنـي .. إنـه حلمـي الخـاص ولم يحلـم بـه أحـد آخـر بالنيابـة عنـي ولهـذا أنـا غـير مـتردد في مـا يتعلـق بـه .. غـير آبـهٍ بمـا سـيقودني إليـه .. إلى الجنـة أو الجحيـم.. إلى الهـلاك أو البقـاء .. لا تهمنـي كل هـذه الأشـياء.

كل مـا يهمنـي أمـر واحـد وهـو ألا أقطـع الطريـق عـلى حلمـي بالتخـلي عنـه .. الحلـم الأول.

كنـت قـد حلمـت في السـابق بالحلـم ذاتـه ولكـن بطريقة عكسـية. كان لـدي حلـم بالذهـاب. أصعـد إلى الطائـرة واستنشـق هـواءً جديـداً في آفـاق جديـدة. كان هـدفي مـن المغـادرة غـير واضـح ولكنـه مثـير و يحققنـي؛ إنـه يسـاعد في تحقيـق ذاتي لأنـه مـع الزمـن سـيصبح جـزءاً منهـا و سـيقول الجميـع إن (نـادر النـور) قـد

نجـح في تحقيـق حلـم الشـعب..حلم المغـادرة.

يريـد الشـعب أن يغادر.كلـه يحلـم بتكويـن نفسـه و العـودة مـرة أخـرى إلى الوطـن برغبـة العمـل والبنـاء و أنـا لسـت بنشـاز عـن سرب الحالمـين الـذي يصطـف في سـماء المطـارات سـاعة تلـو أخـرى و لا يقطـع صفوفـه الممتـدة أيـاً كان.هـم يسـمون أنفسـهم بـسرب الحالمـين بالهجـرة و الدولـة تسـميهم بالعقـول النـيرة المتجهـة إلى الخـارج و أنـا أُسـمي نفـسي (نـادر النـور) و إذا كانـت الظـروف لم تسـمح لي بتسـمية نفـسي و لم تسـمح لي باختيـار البلـد الـذي أولـد فيـه و لم تسـمح لي باختيـار جـذوري و منابعـي الثقافيـة و كل هـذه المشـكلات البشريـة المعقـدة فإننـي في النهايـة أختـار أن أسـمي نفـسي باسـم البدايـات الـذي أُختـير لي؛لأننـي عـلى كل حـال قـد تطابقـت مـع هـذا الاسـم و مـع غـيره و أصبـح هـو أنـا و أنـا هو..أصبحـت الأشـياء التـي لم اخترهـا أنـا و أصبحـت أنـا الأشـياء.

و الطريقـة الوحيـدة للفصـل بـين كل مـا هـو بداخـلي و بـين مـا هـو في الخـارج هـي المغـادرة.أن أهاجر.أحسـم كل أعـمالي الصغـيرة والكبـيرة التـي كنـت قـد بدأتهـا منـذ الميـلاد و حتـى الآن ثم أسـافر إلى بلـد أختـاره بنفـسي و أتحكـم فيـه بمعـدل دخـلي و ضغطـي و

حريتي أيضاً،و بالفعل تحقق الحلم و صفق لي الشعب الذي أمرني بالعودة من أجل البناء و التعمير؛لكنه كان أمراً فاتراً و لا يشجع على العودة لأنه أمر بلا سلطة سوى سلطة الحب و هي سلطة إجبارية في هذه الحالة..حب الأهل و الأقارب والأصدقاء.حب عاجز عن اتخاذ قراره و لذلك يتحول إلى شوق ثم إلى غربة ثم يصير ألماً غير محدد المنابع..ألم مجهول على أي حال؛لكنه يحاول الاستمرار و يأبى أن ينتهي.

و هاهنا لدينا كل شيء..ما يساعد على النسيان..ما يساعد على البقاء أطول و على التأمل و رؤية شريط الحياة في لحظة واحدة؛لكن الألم..الألم شيءٌ لا سبيل للتعامل معه؛فهو موجود و غير موجود..يظهر و لا يظهر..يختفي ولا يختفي؛لكنه يظل على حاله..دائماً يشبهني..دائماً يجعلني أشبهه..دائماً يحول حياتي إلى قصة.

و قصة حياتي قصة لا يمكن حكيها مرة أخرى؛لأنها قصة الشعب كله و يمكن التعويض عنها بأي قصة أخرى و هذا هو الألم.أن لا أملك قصة تخصني..أن أحاول حكاية قصتي فتختلط بوجوه أخرى هي وجوه الآخرين و ليست وجوهي التي نمت في

فـترات مختلفـة و تركتهـا في تلـك الفـترات المختلفة،فعندمـا أحـكي قصتـي ربمـا أكـون قـد حكيـت قصـة آخـر.

مثـلاً في آخـر جولـة لي مـع جمعيـة الصحافيـين الأحـرار التي تنشـط في مجـال الهجـرة و الشـعوب النازحـة التقيـت بصحـافي يعمـل في قسـم الاقتصـاد و تحريـر التقاريـر الحساسـة جـداً و بـدأ يحـكي لي قصصـاً لأنـاس هاجروا..قصـص مأسـاوية..مؤثرة وفائقـة الحيـاة.. داخلهـا حيـاة فاعلـة و حية..حيوية..قصتـي الطويلـة ذاتهـا التـي لا أخطئها..كانـت قصتـي.

ولـد سـافر في الليـل لأنـه يخـاف أن يبتلعـه شـبح الضـوء و نـور الصبـاح الهائـل و لكنـه قبـل أن يصـل توفـت أمـه عـن طريـق الخطـأ في المشـفى الـذي كان يعمـل فيـه قبـل السـفر فرجـع..و آخـرُ تـرك الدراسـة و الونـس و العـشرة الطيبـة و قـرر الغـرق في البحـر؛في الحقيقـة كان قـد قـرر السـفر الـذي هـو الغـرق في النهاية لأن الناجـون مـن سـفينة الهجـرة التـي تقـل ٨٠٠ مهاجـر أسـبوعياً لا يتجـاوز عددهـم السـتة؛فقراره بالسـفر هـو قـرار الغـرق..أن يـزرع بـذرة يعـرف أن هـذه ليسـت أرضها..بـذرة لـن تنبـت أبـداً.

و هنالـك قصـة أخـرى لفتـاة قـررت المـوت فماتـت.و هـذه قصـص

الشـعب التـي تشـبه قصتـي و لا تشبهها..تشـبهها لأنهـا تشـبهها ولا تشـبهها لأننـي لم أمـت و لم أغـرق و لم أغـادر في الليـل و لم أتأكـد مـن حلـم العـودة بعـد.

لـدي حلـم بالنسـيان.أدخل إلى الغرفـة و أغلـق البـاب و الحيـاة التـي في الخارج..أريـد أن أغـرق في داخـلي الـذي غادرتـه منـذ خمسـة عـشر عاماً..أريـد أن أقـرر قـراراً يعـود بي إلى البدايـات دون أن يفصلنـي عـن حيـاة اليوم..حيـاة حلمـت بهـا في السـابق و لا أسـتطيع التخـلي عنهـا و حيـاة أخـرى حلمـت فيهـا بمـا أنـا عليـه الآن..حيـاة اليوم..حيـاة الأمـس..و حيـاة القصـة التـي تنتـج عـن الدمـج بينهـما.و حيـاة أخـرى تجعلنـي أنـسى الثـلاث الأخريـات.

الآن أنـا في الغرفة..أحـاول أن أخلـق هـذه الحيـاة مـن مسـتلزمات بسـيطة..مقطوعة موسـيقية مجـردة مـن كل حس،موسـيقاها لا تحيـل إلى شـعور بعينـه..لا تعطـي الرغبـة في الرقـص و لا البـكاء و لا الرغبـة في ترديدها؛لكـن في الوقـت نفسـه تعطـي الرغبـة في كل ذلـك و تجعلنـي في حـيرة ثـم عجز..ثـم أنسى.العجز..العجـز هـو الخـبرة الفائقـة عـلى النسـيان..العاجز ينـسى كل شيء، أنـا متأكـد مـن هـذا؛و لأننـي متأكـد لا أسـتطيع أن أكـون عاجـزاً..لا أسـتطيع

النسـيان لأننـي أعـرف معنـاه و حينـما أنـسى أحـس بأننـي قـد نسـيت و هكـذا أكـون متناسـياً و ليـس ناسـياً.

و لكـن النسـيان ليـس مهنـة ألتـزم بقواعدها..ليـس موهبـة أعجـز عــن تطويرها..ليــس النســيان بهــدف و إنمــا وســيلة لوجــودي هنـا في بلـد النـاس الغربـاء الذيـن أصبحـت واحـداً منهم..النـاس الذيـن أخـاف أن لا أعيـش بينهـم كـما يجـب و أن لا يفهمونني و لذلـك أمحـو الأثـر وأمـلأ فراغـه بالمعنـى الكبير..معنـى البقـاء دون أن تنمحـي سـيرتي هنـاك ومعنـى العـودة دون أن يسـاء فهمـي ويُسـتغرب مـن حالتي.فهاهنـا تعلمـت لغـات و تعلمـت الحـكي عبرها..تعلمـت قصصـاً و وجـدت لهـا أشـكالاً لغويـة جديـدة في هــذه اللغــات.و لأننــي أحــكي القصــة بحســب مــا أعرفــه مــن كلمات؛أحـاول بقـدر الإمـكان أن أكـون نفـسي و ليـس اللغـة التـي أكتــب بها..أحــاول أن أصنــع قصــة في حــدود هــذه المفــردات،و هكـذا تتشـوه قصـة حيـاتي في كل مـرة وتصبـح غـير محايدة..غـير صادقة..غـير تامـة..و غـير ذلـك مـن الأشـياء.

جسدان في المرقص

في أوقات سابقة كنا نتوق لأن نتحول من جسدين معطوبين إلى أجساد مطلقة الطاقة. كنا نتوق لأن يتعرف كلٌّ منَّا على أسرار الآخر و أحلامه و لم يكن لدينا سبب وجيه بشأن هذا التوق؛فكلانا لم يكن يدري لماذا يهمه أمر الآخر إلى هذه الدرجة. أخبرنا بعضنا أن هذه الأمور لا تحتمل التساؤل و هي فطرة بشرية لا مناص منها..اعتقدنا معاً أن هذا هو الواجب الإنساني المطلوب منا تنفيذه في الأرض..كانت ماري كثيرة الأحزان و الحديث..كانت تسألني عن السبب الذي يجعلني أراها بكل هذا الكمال و كنت أخبرها أن هذه هي الحقيقة الراسخة. أنت كاملة قبل أن تراك عيني يا ماري؛و هي بالطبع لا تصدق هذا الكلام و عندما تنتهي المحادثات بيننا أجدها شاردة في مطلقها و هي تحاول القبض على قضية جديدة من أجل مواصلة الحديث.إذ أنها تعتقد أن الصمت يعبر عن سأمنا من بعضنا بعضاً و انخفاض طاقة الميل و المحبة بيننا. والآن بعد كل هذه السنوات أجدها مخطئة بشأن اعتقادها؛فهذا الصمت

عندما نضعه مقابل الشكوى نجد أن الأمور كلها مختلفة و أننا لم نعرف بعضنا بما يكفي في السابق،و أن الصمت هو تعبير عن الاكتشاف.أصمت من أجل الاستغراق في اللا تفكير. أضع كل الشكاوى على الطاولة و أضغط على الزناد و هكذا يتولد الحب؛هذا الدخان المحلق برفقة الروح التي أخذها.

وفي جانب آخر،الصمت هو كل هذه المحاولات الجادة للتخفف من الحيوات الداخلية عبر الاعتراف؛إنه في صورة من صوره يعني البحث عن الجنة عبر مغفرة الذنوب و هو أيضاً رحلة للبحث عن منابع الذنوب واقترافها..و هو خدعة متفق عليها من قبل جميع الأطراف.

لكن ألاحظ هذه الأيام أن هذه المسائل قد اختلفت.صارت جلساتنا باهتة؛كما أن العيون التي ننظر بها لبعضنا تلطخت ببعضها و صرنا وجهاً واحداً و لذلك نحن نبحث عن وجه ثالث نتحدث معه..نحاول الفرار من هذا التعود و الرتابة و الموت.

نريد الحديث عن مصير حياتنا ومستقبلها،و الحديث عن ذلك يتطلب أن ينسى كل منا الآخر و ألا يعامله على أنه

سيبقى معه إلى الأبد؛لا نقصد المُضِّي قُدماً في التجاهل الذي بدأناه منذ مدة و لكن ما نقصده هو أن نتجاهل بعضنا بحرية مطلقة بحيث لا تنتبه ماري لما أفعله حينما أمرُّ بها في الطرقات و لا أنتبه أنا لتجاهلها؛و لقد توصلنا اليوم لصيغة اتفاق غريبة.قلنا إن مشكلة هذه العلاقة أن هنالك طرفاً آخر و ما ينبغي فعله هو أن نلغي هذا الطرف و نصل بالأمور لأن يقول الواحد منا لآخره:

ـ يا أنا.

وهذا الاتفاق ما زال يسير على أكمل وجه و لا تواجهه سوى مشكلة الجسد.لماري جسدها و أنا لدي جسد آخر؛و حتى بعد أن صارت أعيننا و دماغينا يفكران في أمر واحد على الدوام؛إلا أن جسدينا ينفيان هذه الخدعة..أرى ماري و هي تراني و هذا ما يفتح كوة الغربة و الوحشة مرة أخرى.عندما أتجاهل أن ماري تجاهلتني أجد أنه لا مفر،فهذا يعني أننا لازلنا نفكر في بعضنا بوصفنا شيئين يتوقان لشيء مشترك.

في طاولة المرقص جلس جسدي و جسدها..كان كل مجسم يقابل المجسم الماكث قُبالته و بخجل مبالغ فيه كانت أجسادنا تتألم

مـن كونهـا جاهلـة بفنـون التخـلي عـن نفسـها..هذان الجسـدان الآخـذان نفسـيهما عـلى محمـل الجـد لا يسـتطيعان أن يـتركا هـذه الغبـاوة مـن أجـل عيـش أفضـل و أطـول مشـترك؛فلو أن كل جسـد اسـتطاع تجاهـل نفسـه كامـلاً ليحـل في الآخـر لكسـب كل منهـما حيـاة الآخـر..و لصـار عمرهـما في الحيـاة ضعـف مـا هـو مكتـوب.

ناقشـنا في ذلـك اليـوم أيضـاً مسـألة الحياة..قلنـا في لحظـة واحـدة و بصـوت واحـد:

ـ لماذا يموت الإنسان إذا كان خلقه يتم بهذه الصعوبة.

و يومهـا قـد أخبرتنـي مـاري بـسر يتعلـق بكونهـا لا تريـد أن تمـوت؛و لم تكـن تقصـد ذلـك بالضبط..قالـت حينـما أمـوت تحـدث عنـي كثيراً،قلـت هـذا لـن يفيـد كثيراً.قالـت إذاً نسـيت اتفاقنـا السـابق؛لقد تعاهدنـا عـلى أن الحيـاة هـي أن نكـون حاضريـن في وعـي الآخرين..قلـت و أتفقنـا عـلى أن نلغـي الآخريـن.

ـ اصمت يا أهبل..لسنا آلهة.

و بالطبـع لم يكـن مهـماً بالنسـبة لنـا سـواء كنـا آلهـة أم لا..مـا يهمنـا هـو التحكـم في حياتنـا بمـا يليـق بوعينـا كجسـدين..نريد

التفـوق عـلى أنفسـنا بوصفنـا كائنـات تملـك بدايـة ونهايـة..و نريـد أيضـاً أن نلغـي الحريـة حتـى نتخلـص مـن نقصهـا.

نعتقـد أنـا و مـاري أن حياتنـا هـي جـدوى العـالم كلـه،و نعتقـد أيضـاً أن العـالم بـلا جـدوى.و عندمـا نلتقـي نتحـدث بشـأن هـذه الاعتقـادات و هـذا مـا يولـد بيننـا أنفاقـاً وجسـوراً لسـير طريـق الحب..نحـس بأننـا إذا انتهينـا إلى المصـير المعلـوم فـإن مصائـر الحيـاة كلهـا سـتتغير مـن بعـد ذلك؛فتصـير المراقـص مراقـص بـلا زوار..تصـير قنينـات المشروبـات الروحيـة مخـازن للدمـوع و تصـير أحـزان العـالم كبـيرة بمـا يكفـي لتلاشـيه.

و في الأوقـات التـي نتذكـر فيهـا المـاضي يدعـي كل منـا أنـه لم يحـضر ذلـك المـاضي مـع الآخر؛فبالرغـم مـن أنـه مـاضٍ مشـترك إلا أنـه يدفعنـا للخجـل مـن بعضنا؛فنحـن وحدنـا مـن يعـرف أننـا لم نكـن نعمـل في المرقـص مـن أجـل الرقـص الحـر و إنمـا للتخلـص مـن آلامنـا دون أن نشـكو لأحد؛ففـي هـذا المرقـص التقيـت مـاري. كانـت وحيـدة غريبـة مثـل زمـن لم يـأتي بعد.كانـت تبـدو مثـل شيء ينتمـي إلى عـالم اللاشيء.كانـت مـاري فقط؛فـلا أحـد يعـرف عنهـا سـوى اسـمها و لا أحـد يريـد أن يعـرف أصلاً.وحيـدة التقـت

بوحيـد و الآن انظـر النتيجة..الخجل؛مـن مـاذا نخجل..ربمـا مـن أنفسـنا بوصفهـا قـد تغـيرت كثـيراً الآن.أقـول لمـاري يجـب أن نغـادر المرقص,تقـول ليـس قبـل أن نحـل معضلـة الاندمـاج.

المرقـص فارغ..الطـاولات تنتظـر زوراهـا بـلا طائل..النـدلاء في طريقهـم لإغـلاق المرقـص ونحـن نجلـس وحيديـن..روح واحـدة.. قلـب واحد..دمـاغ واحد..وعي..شـكوى..ألم..كل شيء متحـد مـا عـدا جسـدينا.هذه مـاري و هـذا أنا..جسـدي و جسـدها يقفـان حائرين..ينظـران لبعضهـما نظـرات أخـيرة و يقفـزان في خـلاط العنـب الكبـير.

التنحّي

لقـد أكلـت الشـمس رأسي ولابـد أنهـا سـتمحو كل هـذه الـرؤوس المُترنحـة .. سـتبيضُ عـلى شـعرهم وتصبـح عشـيرة الشـمس أكبر؛فيالـه مـن نهـارٍ قائـظ و يـا لي مـن فتـى طائـش في سـبيل رفضـه للحياة.مشـينا أنـا وحيـاتي عـلى امتـداد الرصيـف وكان الرصيـفُ مثقوبـاً بالعيـون التـي تُحـدق بـه. كان المـارة يشـترون أكوابـاً مـن اليورانيـوم و يشربـون مـن البحـر الواقـع خلـف شـاطئ العربـة المُتجهـة إلى السـماء، وكان البحـر المـشروبُ أخـضر غـير يانع..طحلبـاً غـير نافـع..كان بحـراً شربتـه الجماعـات و الفـرق.

بـدأت في إدارة مشـيتي وسـط هـذه الجمـوع المحلوقـة بمقـص الأشـعة الطبيعية..عـلى بعـد مترين تمـشي أنثـى بغـير لـون محدد؛ربمـا جعلتهـا الحشـود تبـدو كذلـك.

حسـناً، إذا كان مقـدار خطـوتي نصـف مـتر في الثانيـة فـإن البنـت سـتصطدم بي خـلال أربـع ثـوانٍ إذا لم تُغـيِّر مسـارها أو لم أُغـير

مساري؛و أنا من جانبي لن أُغيِّر مساري لأن التغيير سينسف حقيقة حياتي كلها و يجعلني أبدو كجسدٍ يخاف أجساد الآخرين؛لكن الشارع هو مسؤوليتنا جميعاً و على أحدنا أن يتنحى لبرهة حتى يعبر الآخر..على أحدنا أن ينحرف عن الوجهة التي تقصدها الثواني العالقة حتى يكسب نفسه مقابل الوقت الذي يُسابق العربة السماوية.

كانت أجساد البشر القادمين نحوي غير مكشوفة لكنها مألوفة..كانت جماعة تقف على شاطئ الطحالب و تراقب كل ما يحدث.كان أحدهم ينظر إلى المترين الفاصلين بيننا و كان آخر يُسقِطُ على تلك المساحة قوانين أخلاقية بلا هوادة.

في نفوسهم كانوا يتمنون لو كانوا مكاني أو لو كانوا مكانها و هي مكاني.فكرتُ في كل ذلك فهربتْ من وقتي ثانية كاملة.. مسحتُ شعري فبحثتْ الشمس في يدي عن البرودة لكن دون جدوى..ظلت الشمس شمساً.

فكرتْ البنت بأنها تريد التنحي و لكنها لا تريد التنحي لذاته؛إنها تقصدُ أمراً آخر لا أعرفه..إنها تفعل ذلك من أجل شيء محدد لا أدري به..ربما تريد اللحاق بالحافلة و لكن هناك

حافلات أخرى يمكن استقلالها دون تنحٍ..لا لا؛إنها تريد أن تنجو بنفسها من جسدي الذي يبدو كسيلٍ من الحصين الهاربة أو ربما لا هذا بالضبط و لا ذاك؛إنها فقط تريد أن تُفسد على جماعة الشاطئ عذوبة المشهد.

مرة أخرى بدأت كسور الثواني في الانخفاض و التلاشي و نحن جميعنا نمشي و في مقابلنا آخرون غادون..آخرون رائحون.. آخرون غير منتمين لأيٍّ جهة؛إنهم في متوسط الحلقة يقفون ليفصلوا بين الجماعتين و يفضون الاشتباك؛و في الحقيقة لا اشتباكات تُذكر و لكنهم في كل الأحوال لن يتركوا عملهم الجوهري لأجل الصورة الظاهرية؛فكل الاحتمالات ممكنة.

ثانية أخرى تعبرُ أمام وجهي كالسيف و لكنها غير مصقولةٍ مثله؛فهي ثانية ترنو إلى ذكريات لا تُرى عواقبها.

الذكريات:

«حذرتني أمي من الأجساد التي في الطرقات..قالت لا تجعل أحداً يرى ما تُريد إخفاءه،لا تجعلهم يبدون كحقيقة مرئية في حياتك..حطم كل مشهد يُقابلك بأن تتجاهله..بأن تتناساه عبر تذكُّركَ لمشهد آخر يشبهه»

حياتي كلها غير مصقولة و هي تسير معي كتفاً بكتف..لحظة بلحظة..خطوة بخطوة و لا تتركني للانفلات و اللانظام..إنها حياة تمتلئ بالفراغ و التصورات المسبقة؛و من تصوراتي الغريبة التي يصعب على الأخرين تصورها أن الجسد شيء مقدس و أنه محكوم بالزواج أو مواصلة التنحي إلى الأبد..جسدي يعمل كمتنحياً في الشوارع؛يفلت من هذه و يبتعد عن ذاك..يهرب من الأجساد الأخرى إلى أماكن مجهولة عند الشك و واضحة عند اكتمال اليقين.

انتقلتْ الشمس من جهةٍ إلى أخرى..من الأسفل إلى الأعلى؛ ذلك أننا كنا في الثانية الثالثة قد عبرنا بمظلة من الزنك والحديد و الأعين اليورانيومية. لم نرتبك وهم كذلك فعلوا..لم نحترق كما أرادت لنا الشمس و كذلك أصحاب الأعين الذين يحتمون من الشمس بالمظلات و من ملل النهار بمراقبة العابرين و منَّا بأعينهم اليورانيومية الساطعة الجاهرة.كنا فقط نُجرِّب حياتنا التي تهرُّب منا..كنت بصفتي الشخصية أمدُ جسوراً بيني و بين الناس الذين لا أراهم..أمدُ حلاوة للطفل الذي يهربُ من وصية أمه بلا مهادنة.

كنـتُ أضيء ذلـك كلـه بـأن أُفكـر فيـه..و كان الوقـت غـير صالـحٍ لفعـل ذلك..كانـت الأشـياء مـن حـولي تضعُّنـي أمـام الثانيـة الرابعة و تمـررُّ مـن خـلالي حيـاة غـير مرئية..مـر جسـد البنـت مـن خـلالي و حولنـي إليـه.

أكثر من اللازم

أُعـاني آلامـاً في ظهـري. أعتقـد أن العاطفـة الجياشـة هي السـبب في ذلـك .. أحـب نفـسي لدرجـة غـير معقولـة وهـذا مـا يجعـل حيـاتي و آمـالي و أحلامـي تندفـع إلى الداخـل وتخـترق صدري..تُدمـرني و تنهـش جسـدي بـلا كلـل ولا تُعـبِّر عـن نفسـها. لابـد أن أولئـك الذيـن يتمتَّعـون بصحـة جيـدة يمتلكـون نظامـاً يجعلهـم ينسـون النـاس حينـما يخلـون بأنفسـهم؛ أمـا أمثـالي فيعانـون معانـاة لا نهائيـة بسـبب الوحـدة والصمـت المسـتمر وعـدم الإفصـاح.

في السـابق كان ألم الظهـر بسـيطاً وكنـت أداويـه بالتَّقلُّـبِ عـلى الوسـائد الناعمة؛أمـا الآن فقـد تمـدد حتـى وصـل إلى كل أعضـائي.. لـدي ألم ظهـر في قلبـي..ألم ظهـر في دماغـي .. ألم ظهـر في رجـلي و في الطريـق الـذي أعـبره إلى المستشـفيات.

و قـد أخـبرني الطبيـب بـأن هـذه الحالـة سـببها عـدم نومـي الـكافي؛ لكنـه سـبب غـير مقنـع أو أنـه ناتـجٌ عـن شـخص لم ينظـر للمشـكلة في إطارهـا الـكلي.

فـما هـو سـبب عـدم نومـي الكافي؛إنـه بسـبب النـاس الذيـن أحبهـم ولا أفصـح لهم،حيـث تتحـول تلـك الطاقـة العاشـقة إلى قطـع مترسـبة مـن الحـزن والعظـام المهشَّـمة و الأفـراح التـي لم تبلـغ مقصدهـا.

ففـي الليـل أتذكرهم..أتذكـر أقوالهـم عـن كونهـم يحبونني..أتذكـر كيـف أننـي شـعرت بقلبـي يطـير عنـد إفصاحهم؛لكنـه طـار في الاتجـاه المعاكس..عـاد نحـوي و اخـترق قفـصي الصـدري.

وأنـا الآن لا أعـرف أيـن يقـع هـذا الألم بالضبط؛ربمـا هـو خـارج جسـدي..ربما هـو في الحيـاة و الناس؛قـد يكـون بسـبب مراقبتـي الدائمـة لـه..و ربمـا بـلا سـبب. و لكـن عـليَّ توضيـح بعـض الأمور؛فهنالـك أشـياء أخـرى لا أعرفهـا:

لا أعـرف مـا الـذي يجعـل النـاس يحبُّـون بعضهـم إلى هـذا الحد،هـل يتعاونـون ضـد قسـوة الحيـاة الأزلية..هـل يتبادلـون حيـوات بعضهـم في سـبيل بحثهـم عـن الخلود..هـل يخدعـون أوقـات فراغهـم و يملئونهـا مـرة أخـرى بالفراغ..هـل يتنافسـون بشـأن مـن هـو الأكـثر شـفقةً وفهـماً للآخـر أم أنهـم يؤكـدون عـبر كل ذلـك عـلى أن الحيـاة لا معنـى لهـا.

لا أعرف!

في الحديقة يجلس حبيبان..فراغان..كتلتان من الألم..يتحدثان فتخرج الآلام؛و الحيرة هنا أن آلامهم لا تزيد؛بل تذوب في المسافة بينهما..تتلاشى..تتبخر..تمضي إلى مخزن التوحد الذي نبعت منه.

لا أعرف!

هل هذا جيد أم سيء.لأن الوحدة تنهضُ مجدداً بمجرد أن يودعان بعضهما و يفترقان؛و من غير الممكن أن يمكث الناس مع بعضهم طوال الوقت و يتركون العمل،و في ظني أن هذه هي المشكلة؛لا يرانا أحبابنا طوال الوقت و لا يعرفون حياتنا السرية و الحل الوحيد هو التعود على التحمُّل و ثِقَلِ الدم و الخروج من الدنيا بأقل الخسائر.

قال لي طبيب آخر إن مشكلتي هي في البحث عن الكمال المطلق..أنت رجل ذو فهم ملتبس و لا تفرق بين الحب و النوم و الخلود..بين الحياة الرسمية و الأُخرى الوهمية؛أنت تحس بالأشياء أكثر من اللازم وعليك التخلص من هذا الحس.

لا أعرف!

لكـن هـذا الطبيـب قـد فهمني/نا..فهـو يملـك ذات المشـكلة..كما أنـه يتابـع حالتـي منـذ الميـلاد و حتـى الآن.

القفز من النافذة

في المقعد الخلفي للمركبة تمكث سيدة بدينة الجسم..رقيقة المشاعر..تمد رجليها باسترخاء..تناوش رجلاً على الهاتف.. تضايقني بشدة..ذراعها الأيمن يغطي جسدي بالكامل و العرق كمملكةٍ بسطت سلطانها على دويلات صغيرة.كلما شعرت بالضجر في عيني تمد كيس(التسالي) بهدوء و اعتذار.

_ آسفة، نعمل شنو الحال مفروض.

- لا لا عادي،النفوس طيبة.

حقيقة لا حاجة لي بكل هذا المقعد؛إنه كبير ويسع ثلاثة أشخاص معتدلين ونصف و إذا وضعتُ عليه الحقيبة التي أحملها و اللحاف الذي اشتريته سيكفي بكل ارتياح..تثاءبت المرأة تثاؤباً طويلاً و مقززاً وظهر فمها كغاباتٍ تسكنها حصين مكسورة الظهر،و أيضاً اعتذرت لذلك.

ولكن ما فائدة الاعتذار إذا سيطرت على الإنسان حقيقة ضعفه الجسدي..ما فائدة ضعفه الجسدي..ما فائدة أن أركب

في حافلة الدنيا و لا أصل.إذا أسرعت الحافلة أمطرت إبطيها عرقاً و اهتزت الأحاسيس وربت..تمدُ رجليها..تضمُ رجليها.. تنفرجُ رجليها دون قصد..ترقدُ على كتفي..أحتاج لبصيرٍ عجوز يداوي الرضخ العظمي الذي أصبت به؛و هذه المرة لم تعتذر.. تائهة كانت في نومٍ عميق و من هلاوس الكلام علمتُ أنها تحلم بأكوانٍ بعيدة و أوطان تكون فيها كزرافة رشيقة تداعب شجيرات الشاي الخضراء..تحلمُ بأن تصير غير ما هي عليه الآن.و أنا دائماً ما تفوتني محطتي؛لكن لا أظن أن هذا سيحصل..كنتُ لفرط تركيزي أراقبُ الغبار و النمل على الأرض من نافذة المركبة و أُردد بعض الأغنيات الهادئة التي لا تجعل الصوت يذهب للبعيد؛فالجميع لديه ما يشغله غير صوتي.

سنة تأخذ الكون من حولنا والسيارات لا تبالي؛و إذا فاقت البدينة من نومها تعتذر سريعاً وتعود إليه..شاحنةٌ ضخمةٌ تقترب،توقظ عندي فوبيا الحوادث؛لقد تعرَّضتُ للكثير من الصدمات وما زلت أخاف.

وهي:

تفيق من نومها،تعتذر..تضجُ الأبواق،تعتذر.

الشاحنة..الشاحنة..الشـاحنة..أزفت الآزفة؛الشـاحنة تصطـدم بنـا..
الرهــط الراكبــون يهرولون..البدينــة تســد الطريــق إلى النجــاة..
حاولـت أن أقفـز مـن نافـذة المركبـة كـما ركبـت لكـن لا يمكـن ترك
اللحـاف و كذلـك المعتـذرة لقـد نشـأت بيننـا صداقـة و رابطـة
عـرق.

نميمة الروايات

أنـا في عزلـة..في بيتـي أُرتـب مـا فعلتـه بالخارج.أُنظـم الكتب.أرسـم خطـاً يبـدأ مـن نقطـة تفكـيري و ينتهـي عنـد بـاب الحيـاة المفتـوح عـلى الأسـئلة واللغـو والكلام.أقـارن وعيـي بـين الأمـس واليـوم فأجـد هُـوأَت لا نهايـة لهـا في جسـد ذاك الوعـي؛و أحسـبُ أن كل شيء عرفتـه قـد سـاهم في صناعـة هـذه الحالة..العزلـة.

عيـون النـاس سـاهمت في تدمـير حيـاتي ونسـفها..نفسي المغلقـة سـاهمت في تدمـير كل نقـاش قبـل أن يبـدأ و كـذا الأمـر بالنسـبة للعـالم فهـو متعـاون مـع العـدم لأجـل نسـفي مـرة إثـر أخـرى.

أنـا في عزلة..بينـي و بـين جـيراني نميمـة غـير مزهرة؛إنهـم يُسـلِّمون عـليَّ عنـد كل صبـاح منـذ عامينـو أنـا أرد السـلام لأننـي أريـد تدريـب لسـاني ضـد الصمـت..أرد بجملـة واحـدة أوتوماتيكيـة.

ـ و عليكم السلام و رحمة الله.

ويمكننـي الآن إحصـاء الكلـمات التـي نطقتهـا أمامهم؛مـا يُقـارب

٧٠ ألـف كلمـة و كل كلمـة لا تشـبه الأُخـرى.

في مـرات يكـون سـلامي حزينـاً..في مـرات أُخـرى يكـون متعجـلاً وكئيباً؛لكـن كثـيراً مـا واجهتنـي حالـة الاختـلاط..أن أقـول:

وعليكـم بحزن..السـلام بفرح..الرحمـة بغضـب لا ينتهـي..و الله؛اللـه بمشـاعر لا أعـرف ماهيتهـا،و هكـذا تـرون بوضـوح أن مشـكلة حيـاتي الأساسـية هـي السـلام؛فأنا في عزلـة..في بيتـي أسـمع مـا يقولـه البـشر في كل العـالم عـن بعضهـم؛و وعيـي يُعرضنـي لمخاطـرة الذوبـان في السـمع.

سـمعتُ بمجموعـة مـن الرؤسـاء قـد قتلـوا رئيسـاً عـبر النميمـة و ذلـك لأنـه أقـام في بـلاده قانونـاً يُحاكـمُ كل مـن يَنِـم في الآخرين؛حيـث تصـادق الرؤسـاء عـلى وثائـق شـفاهية سـخروا فيهـا مـن نـوع الأجهـزة المسـتخدمة في التنفيذ؛لكـن القانـون في ذاته كان يعجبهـم لأنهـم المتـضرر الأول مـن النميمة؛ذلـك أنهـم قـد خرجـوا مـن حالـة العزلـة العامـة و وضعـوا أنفسـهم كقـادة في مـسرح العـالم المفتـوح.

كانـت الأجهـزة عـلى شـكل الأذن و قالـوا في نميمتهـم أنهـا تبـدو

كـما لـو أنهـا ليسـت أذنـاً بشريـة و لا ملائكية؛فهـي تبـدو مثـل أُذن أوجـدت نفسـها بنفسـها.

أذني في عزلـة؛في صَمَمهـا تقـرأ مـا يقولـه الكـون عنها..روحـي في عزلـة؛في غرابتهـا ترسـم مـا تقولـه النفـس عنها..نحـن في الحيـاة و هـذه مشـكلة.

كنـت في البدايـة أنظـر للنميمـة بعـين أخلاقيـة و لكـن الآن أرى الأشـياء مجـردة كـما هي..الكـون كون..الصمـت صمت..الكتـب كتب..أنـا أنـا و النميمـة نميمة. و أرى أن مشـكلة النميمة الأساسـية أنهـا تُعطـل عمـل الـذات المركـزي الـذي هـو التنافـس في العلن؛كما أننـي عرفـت مـن بعـض الروايـات التـي قرأتهـا أن للبـشر حينـما يجتمعـون وظائـف ثـلاث:

ـ يتحدثون عن أن الحياة غير منصفة و أنهم مظلومون.

ـ يناقشـون أفـكاراً و نظريـات سرعـان مـا يكتشـفون ضعفهـم حيالهـا.

ـ يتلذذون بتدمير صور الآخرين محققين ذواتهم عبر النميمة.

والحقيقة أنني لا أصدق الروايات لكنني في عزلة و هي مثلي تماماً لا تصدق نفسها.و الآن أعرف ما السبب الذي يتم من أجله تأليف كل تلك القصص و الحبكات و الصور و السخريات؛و هو أن أُناساً يعيشون في عزلة تامة و ليس لديهم من يَنمُّون معه و لذلك يحتفظون بنمائمهم على الورق كما أفعل الآن.و كذلك أعرف أن نمائم كثيرة لم تجد من يقرأها و ذلك لأن كتابها غير جادين..بليدون..مدَّعون و غير مجيدين للنميمة و أعرف أن نمائم كثيرة قد اشتهرت لأن منجزوها لم يكونوا مدركين بأنها نميمة.»١« و نمائمُ أخرى لم تثمر لأن منجزوها لا يفرقون بين بنية النميمة والبنية الفعلية للحقائق.»٢«..و لقد سمعت أن نماماً يُدعى(فرانز كافكا) قد سدَّ الطرق على النمائم الأُخرى و أن نمائمه أقوى من روح العالم نفسه لأنها قد استوعبته بالكامل و أن نمامين كُثر لا يعرفون كيف يقدِّمون نميمتهم لذلك هم ينِمُّون خارج السرب..كأن تقول سيدة لأخرى:

ـ انظري إلى تلك السيدة..يا لها من بدينة،لابد أنها تُغرِّدُ خارج سِرب الزواج.

وترد عليها الأخرى:

ـ أين هذه البدينة المقصودة..أنا لا أراها.

و من ثم يغرقن جميعاً في بحر نميمية أخرى..نميمتي.

ـ انظر إلى كتاب (ألف ليلة وليلة) و (دون كيخوت) «١»

ـ انظر إلى الروايات العقائدية «٢»

أصابع حريية تحمل القيامة

رأينا الإصبع ممدوداً من النافذة.كان إصبعاً طويلاً مترهلاً و مغبراً برمال القرن الثامن عشر..في بداية سيرنا لم نكن نراه لكن نبهنا رفيقٌ لنا بأنه هناك و أن إشارته تلك تعني إساءة بالغة.و أضاف أن هذه طريقة محلية معروفة تستخدمها النساء حينما يبلغ بهن الحنق مبلغاً؛و بالطبع نحن كنَّا نعرف ذلك إلا أن غمامة صبت على بصيرتنا و لوثتها بمرور الزمن و جعلتنا نبدو انقطاعيين إلى هذا الحد؛فكل الإشارات كانت معروفة لدينا في السابق و لكن الآن قد تغيرت الأدوات..تبدلت الطرائق..كما أن كل شخص صار يمتلك طرقه الحاسمة في التعبير عن الغضب.فهنالك من يحملون أسلحة داخل جيوبهم و يطلقون النار على كل من يُسلِّم عليهم،و هناك من يهرولون حينما تفتح معهم حواراً و هناك منتحرون أيضاً. و مواقف مثل هذه أحفظها عن ظهر قلب و قد مرَّت بي كثيراً في أسواق المدينة و أطراف البلاد.

في مرة رأيت امرأة ترتدي جُلباباً واسعاً لدرجة تُمكنها من

إخفـاء كل العـالم تحتـه و كانـت مُطأطئـة رأسـها لأجـل سـبب لا نعرفـه.. و بينـما هـي كـما هي؛حيَّاهـا رجـل.

ـ السلام عليكم.

ـ نعم؟

قلت لكِ:السلام عليكم.

وهكـذا واجهـت المـرأة نفسـها بـكلِّ أسـئلة الحيـاة و المـوت و الجسـد و القيامـة.. و هكـذا أطلقـت عـلى رأسـه و رأسـها النـار مـن الدبابـة المخفيـة.

تشاو..تشـاو..و طلقـة أُولى كانـت قـد وجهتهـا مُحـذِّرةً نحـو السـماء.

و هـذه طـرقٌ للتعبـير صـارت مألوفـة وهـي لا تدهشـني؛كما أن القـرن الحـادي و العشريـن قـد شـهد صناعـة دبابـات للاسـتخدام الفـردي و المنـزلي و أُخـرى أكـثر ضآلـة مـن أجـل الانتحار؛لكـن المدهـش حقـاً أن صحيفـة قـد كتبـت في الصبـاح:

(سـيدة في عقدهـا الأربعـين قتلـت مجهـولاً طلـب يدهـا للـزواج)

كـما أضافـت الصحيفـة مـن جهدهـا الخـاص أن السـيدة قـد قتلـت نفسـها كي لا تضيـع حماسـة جسـدها سـدىً) لكـن الأمـر المثـير فعـلاً أو الـذي يُمثـل المعنـى الحـرفي للدهشـة أن حمامـة كانـت تُحلـق و تحـط عـلى الزنك..تحـط و تحلـق في هـواء الحيـاة الغريبة و بينـما هـي كـما هـي؛رأت الإصبـع الـذي رأينـاه و ظنـت أن تلـك إسـاءة بالغـة لدولتهـا التـي قدِّمـت منهـا؛و هـذا مـا دفعهـا لتنفيـذ عمليتهـا الانتحاريـة في غـير موضعهـا.و في الصبـاح التـالي نـشرت الصحـف بعـد سـنوات مـن تضليلهـا للنـاس خـبراً صحيحـاً:

(قامـت حمامـة إلكترونيـة بتنفيـذ عمليـة تفجيريـة في إحـدى النوافـذ الواقعـة عـلى شـارع متحـف الخليفـة و أسـفر تفجيرها عن تدمـير مجموعـة مـن الآثـار والتحـف الحربيـة و قالـت السـلطات إنهـا في سـعيها لتعـرف أي جهـة قـد قامـت بهـذا التفجـير و لأي هـدف فعلـت ذلـك)

وفي مقال لمحلل سياسي غير متخصص كتب:

(المعلـوم أن هـذه العمليـة تدخـل في إطـار الحـروب الدينيـة العابـرة للقارات؛لكـن المشـكل الأسـاسي هـو الإسـاءة للرمـوز المعروفـة، فـكان بإمكانهـم عـلى سـبيل المثـال اسـتخدام بومـة

بـدلاً مـن الحمامـة)

وبعـد شـهور مـن تلـك الحادثة.حينـما صـار النـاس لا يقـرءون الصحـف و يحرقـون الكتـب لتخفيـف الازدحـام المنزلي؛قامـت سـيدة ملائكيـة بتأليـف كتـاب بالـغ الإثـارة عن(ماهيـة الإشـارات المسـيئة).

وقـد تدافـع الجمهـور لـشراء ذاك الكتـاب و لكنهـم اكتشـفوا فجـأة أنهـم صـاروا عاجـزون عـن تفكيـك الخطـوط والقراءة.مترجمـون كُـثر حاولـوا نقـل الكتـاب مـن لغتـه الأم إلى لغـات أخـرى لكـن واجهتهـم ذات المشـكلة.و بعـد قـرن مـن ذلـك قامـت القيامـة في الدنيـا و قـد رأى النـاس ماهيتهـا و قبـل ذلـك ظنوهـا سـتُحلِّقُ بهـم إلى الأعـلى لكنهـا حدثـت هـا هنـا بسرعـة؛و مثـل لعبـة خَربـة لطفـل خَـرِب ظلـت تترنـح في اتجاهـات تجهلهـا و ماتـت جـراء منافسـتنا لهولهـا.

طاهية في مطعم الحياة

أريـد أن أسـتبدل حيـاتي. في مدينتـي هنـاك الكثـير مـن النـاس الذيـن يمكنهـم مبادلتي.يضعـون حياتهـم داخـل حيـاتي و أضـع حيـاتي داخـل حيواتهـم و هكـذا بسـهولة يتـم الأمر.يخـرج المـرء إلى الشـارع و يسـطو عـلى أفـراح الآخرين.يتمنـى لـو أنـه كان هـذا الحبيـب الـذي يسـير برفقـة حبيبته،لـو أنـه كان يضحك مثـل هؤلاء الفتيـة السـائرين في طريقهـم بمـرح كأنهـم شـخص واحـد،و لـو أنـه كان غـير موجـود بصفتـه هـذا الشـخص المحدد..الشـخص الـذي لا يمكنـه القفـز أبعـد مـن ذاتـه.

و أنـا أجـد السـعادة حينـما أُخلـص في عمـلي إلا أن عمـلي يتعـرض للـزوال هـذه الأيـام؛إذ أن المدينـة التـي أقطنهـا تم إعلانهـا كمنطقة حظـر تجـول و صـار مـن غـير المسـموح أن يتجـول النـاس بعـد السـابعة مسـاءً.و عمـلي برمتـه يعتمـد عـلى هـذه السـاعات؛عند خـروج الأحبـة و العشـاق و العوائـل المرحـة و الأصدقـاء.في ذلـك

الوقـت أكـون في قمـة النشـوة ولا تفوتنـي مراقبـة أيـاً كان...و بمـا أننـي لا أراقـب إلا الجماعـات فمتعتـي تتضـاءل حينـما يغيبـون،و أحـس عندهـا بتقصـير مبالـغ فيـه و أشـعر أننـي أتقـاضى أمـولاً بـلا عمل؛فـلا يمكـن أن أغـذي نفـسي بالمأكـولات و المشروبـات طـوال النهـار و حينـما يـأتي وقـت العمـل أتركهـا هكـذا بـلا شـغل أو مشـغلة؛فمن الـلازم أن تـؤدي عملهـا.و إذا كان الأحبـة و الرفقـاء قـد اختفـوا فـإن مـن واجبهـا العمـل عـلى مراقبـة الأفـراد بوصفهـم يتوقـون لأحبتهـم الغائبـين،و هـذه بـكل تأكيـد ليسـت بمراقبـة سـهلة.إذ عـليَّ حينهـا أن أراقـب المـارة و أوجـد صـور و أشـكال أحبتهـم في وجوهـم الحزينـة.

هنالـك سـيدة أفريقيـة تعمـل كطاهيـة بمطعـم و هـي تمتلـك آلامـاً تتعلـق بكونهـا لا تسـتطيع امتـلاك الحب.خـلال حياتهـا كلهـا لم يعشـقها أحـد حتـى أنهـا تعتقـد أن أهلهـا قـد ربوهـا طـوال هـذه السـنوات لتعمـل في هـذه المطاعـم و تجلـب المال،كما أنهـا تتحدث عـن أن كل الذيـن عرفتهـم لا يحبـون بعضهـم بحـق و إنما يتسـلون ببعضهـم إلى حـين الحصـول عـلى متعـة أخـرى.و هـي تؤمـن بـأن أجهـزة ميلهـا إلى الآخريـن معطلـة منـذ مجيئهـا إلى العالم.تقـول إن

الناس يريدون منها أن تحبهم في الوقت الذي يريدون وهي لا تؤمن بهذا النوع من الحب لأنه مذلة. و كانت قد اكتشفت قبل كل ذلك أن العلاقات البشرية كلها هكذا و أن الجميع يعرفون هذا الأمر ولكنهم يتناسونه على أمل الخلود أو الملاقاة مرة أخرى في الجنة. و أحياناً عندما أجد نفسي قد تعبت و لا تستطيع المواصلة بذات القوة في العمل؛أذهب إلى هذه السيدة و نبدأ الحديث في موضوعات شتى حتى أن دماغي يتشتت من كثرة أسئلتها وحديثها،و هي في الحقيقة لا تتحدث مع أحد غيري و تحاول بقدر الإمكان أن لا يراها أحد وهي تتحدث. ذلك أنها كانت قد أخبرت الكثير من الزوار أنها بكماء و يمكنها أن تسمعهم فقط؛و لما كانت لا تجيد الكذب فقد قادها هذا إلى الاعتقاد بأن الله قد سخطها و أنه سوف يأخذ روحها إذا تضرر أحد من هذا الكذب؛فهي تتحدث بشكل مباشر عن أن الله هو الخالق الفعلي للكون و أن السماء غير موجودة بوصفها حجاباً له و إنما هي مجرد تسلية لعالم البشر المجرد من كل غطاء و رغم أنها تعرف أنني أعرف هذا الكلام إلا أنها تصر على تكراره في كل مرة لأنه الأمر الوحيد الذي تستطيع الحديث عنه كمدخل أولي لحكاية قصة حزنها و حياتها ومن

ثـم تنتقـل للحديـث عـن أنهـا في كل صبـاح تفتـح نافـذة للشـمس ولكـن هـذه النافـذة لا تـأتي إلا بأضـواء جحيمية..أعـين زرقـاء و خـضراء و حمـراء سـكرانة..أعين مثـل أعـين القطـط، دائمـاً مصوبـة النظـر و كأنهـا موكلـة بحراسـة العـالم.

و تلـك الأعـين تفتـح حياتهـا عـلى المدارسـة و التأمل..تبنيهـا مـن جديـد و تجعلهـا تـرى عالمـاً غـير الـذي تعرفه..تقـول تلـك العيـون إن في القلـب طاقـة جبـارة و في الحيـاة أماكـن غـير مطروقـة بأقدام البشريـة و كل تلـك الأشـياء ينبغـي أن تتعـرف عليهـا (كاسي) و أنـا أعـرف أنهـا حينـما تتعـرف عليهـا سـتجد أنـه مـا مـن حاجـة لهـا في الحديـث مـع شـخص مثلي..شـخص يعمـل كمراقـب ولـص أبـدي في المدينـة.

و لأننـي أعـرف كل هـذا مسـبقاً فإننـي لا أسـمح لنفـسي بالنصـح الممتاز.حينـما تسـألني كاسي عـن شـأن حياتهـا و تاريخهـا المـاضي أدخـل في غيبوبـة مـن السـهو والنسـيان.أبدو كـما لـو أننـي أرعـى أطفـالاً صغـاراً يقفـزون في الهـواء ولا يعـودون مـرة أخـرى إلى الأرض و أرد عـلى سـؤالها بالصمـت.

في مـرات تسـألني كاسي عـن المدينة..تقـول إن قدومهـا إلى هنـا مـن

وسـط أفريقيـا سـاعدها عـلى التعـرف عـلى حيـاة بـشر مختلفـين و أنهـا تحـس بنـوع مـن التغـير و الانفتـاح في أعماقهـاو لكـن روحهـا هـي روحهـا لم تتغـير أبداً.عـلى الـدوام تبتعـد عـن النـاس و تعتقـد أنـه إذا لمسـها شـخص أو صافحتـه بحـرارة سـيعرف مبـاشرة كل شيء عنها؛فينتقـل تاريـخ عائلتهـا كخـبراء في عـالم الشـحاذة و الشـعوذة إلى اليـد المصافحـة،و سـيظهر لتلـك اليـد كيـف أن كاسي في يـوم زفـاف أختهـا قامـت بذبـح طائـر مبتـور الجناحـين ذي عـين واحـدة و ذلـك مـن أجـل تعطيـل الزفـاف وتوقيفـه.

و أنـا بالطبـع أراقـب كل هـذه الحكايات..أبـدأ يومـي بترقيـع الفجـوات التـي تواجهنـي في قصـص حيـاة النـاس وأنهيـه بنسـيان تلـك القصـص التـي سـتدخلني في مرحلـة الشـيخوخة قبـل موعدي طالمـا زلـت مواصـلاً في ملاحقتهـا.و أنـا بالطبـع لا أتوقـف و لا أحـب أن أتوقف.فـإذا توقفـت سـتتوقف حيـاتي.

أمـشي في الطرقـات وأنتقـي الحيـاة مـن قلـوب الناس..مـاذا يـرون فيهـا و مـا رؤيتهـم عنها.مـا هـي بالنسـبة لهـم و بالنسـبة لكونهـم سـيغادرونها في نهايـة المطـاف.

واليـوم تطـور عمـلي إذ أسـير في بلـدان العـالم و أتعـرف عـلى أحزان

و آلام نابعة من ثقافات مختلفة.أتعرف على أناس يعانون من أمراض داخلية مختلفة و أسمع قصصاً لم تسمعها أذن بشرية من قبل..قصص خاصة.

سمعت مرة في زيارتي إلى رواندا أن كاسي قد غادرت أرضها في زمن الحرب الأهلية لأنها لم تكن تملك شخصية هناك.. وأنها كانت تأمل في حديثها عند الرحيل أن تعود إلى هنا وهي سيدة مكتملة..إنسانة حقيقة بأفكار واضحة؛لكنها لم تكن تدرك أن اللاشخصية هي شخصيتها المميزة؛فهي تتحول عند كل لحظة لتؤمن بحياة جديدة و طرق جديدة و ضمير جديد و سجية مختلفة عن التي فُطرت عليها؛و هذا كله ما يجعلها مميزة..يجعلها كاسي و ليس شخصاً غيرها.

لكن الأمر لا يتعلق بالشخصية فقط؛فهو يتعلق بالحياة أيضاً.. الشخصية هي الحياة و كاسي لا تملك حياة.حياتها ناقصة لأنها حياة متقلبة.حياة ناقصة+حياة ناقصة+حياة ناقصة؛لكن الحياة الناقصة عندما تضاف إلى حياة ناقصة لا تكتمل؛لأن عوامل بناء الحياة تختلف من حياة لأخرى..كل حياة تدخلها تمتلك شروطها و توقيتها و أهدافها. و(كاسي) لا تستوفي هذه الشروط

و لا رغبــة لهــا في هــدف معــين..كاسي مســكينة..حياتها تائهــة.. حياتهـا لا تخلـو مـن حيـاتي التـي اسـتدبتلتها بهـا.

كنـت في مـرة متجهـاً إلى خـارج المدينـة و رأيـت كاسي عـلى وشـك مغـادرة الحيــاة و المدينة..تصافحنــا و سَرَتْ حيــاتي في حياتهــا وسَرَتْ حياتهـا في حيـاتي و صرت أبكـماً مراقبـاً و حانقـاً عـلى النـاس في الشــوارع.

المصوِّر

أنـام صباحـي كلـه و في الليـل أصحو.عمـلي يتطلـب ذلك.أعمـل مصـوراً في صـالات الأفـراح الفاخـرة و هـذه الصـالات لا تعمـل سـوى في الليـل و زوارهـا كأن أمهاتهـم كـنَّ يعشـقن خفافيـش في شـبابهن..عيونهم لامعـة مثـل قمـر يفيـض بنـور مـن الكآبـة.. وجوههـم و كأنهـا قـد خرجـت مـن قبـو لا ينتمـي إلى كوكبنـا و أجسادهم؛أجسـادهم تبـدو و كأنهـا غـير منتميـة لأرواحهـم..كل عضـو يسـير في اتجـاه يعاكـس الآخـر و مـع ذلـك كلـه يريـدون الاحتفـاظ بذكرياتهـم داخـل الصور..يـودون تخليـد وجوههـم البشـعة الحاقـدة داخـل الصـور؛و بالرغـم مـن أن هـذا كلـه لا يخصنـي إلا أننـي كثير التدخل،حينـما يتراقصون أخبرهـم أن رقصهم غـير حقيقي.أقـول لهـم عليكـم الاهتـمام بكيانكـم الـكلي و تحريكه بشـكل متـزن و ذلـك مـن أجـل الحصـول عـلى صـورة جيـدة.و هـم يجـدون كلامـي غريبـاً .. أعتقـد أنهـم لا يروننـي أصلاً؛أنـا المصـوِّر المتكلـم بالإشـارات وسـط صخـب الموسـيقى الفاشـلة هذه؛أحـاول تعديـل سـلوك النـاس مـن خـلال التصوير؛فيمكننـي ببسـاطة

أن ألتقـط الصـورة بـأي شـكل كان.في النهايـة سـآخذ أجـري و ينتهـي الأمر.لكننـي انطلاقـاً مـن واجبـي الأخلاقـي تجـاه البـشر و الحيـاة أعتقـد أنـه مـن الـلازم أن أسـتغل عمـلي اسـتغلالاً أمثـل. فبـدلاً مـن السـماح لهـؤلاء المجانـين بهـذا الرقـص المـزور و غـير الحقيقي؛ينبغـي أن أحيطهـم علـماً أن صورهـم في الكامـيرا تبـدو كـما هـي في الواقـع و أن أفتـح وعيهـم عـلى أن الكامـيرا هـي شيء مثـل الطاقـة العليا؛فهـي تسـجل كل شيء و جزاؤهـا مـن جنـس العمل.فمحبتهـم الكاذبـة سـتظهر كـما هـي.

المعادلة واضحة:

محبـة صادقـة في الواقـع محبـة صادقـة في الكاميرا..بسـمة فاشـلة في الواقـع بسـمة فاشـلة في الكامـيرا.و هكـذا تتناسـب المشـاعر طرديـاً عنـد الالتقـاط.

أذكـر ذات مـرة أننـي تأخـرت عـن الحفـل لنصـف سـاعة مـما اضطـر أصحابـه إلى اللجـوء إلى مصـور آخـر. و عنـد وصـولي وجـدت ذلـك المصـور يصور.ينتقـل هنـا و هناك.يهـرول كنجمـة تلاحـق الشـياطين.يلتقط صـوراً لفتيـات و فتيـان يقفـون بجانـب بعضهـم بـلا هـدف و هـو يبتسـم و لا أعـرف لماذا؛ربما لأنـه يـود

أن يقـف معهـم و يصورهـم في الوقـت ذاتـه أو لأنـه لا يملـك حيـاة مثـل هـذه الحيـاة.و ربمـا لا هـذا ولا ذاك؛فالأجـر الممنـوح لـه كبـير ولا يصـدق.

و بسـبب طاقتـي المكُتسـبة مـن نـوم الصبـاح تشـاجرت مـع ذلـك المصـور..أشرت إليـه بـأن طريقتـه في العمـل تُعـبر عـن بشـاعة لا تغتفـر.إذ أنـه يضـع معيـار لجـمال و يتجـول يتجـول في الصالـة مترصـداً البنـات الجميـلات البيضـاوات مثـل حليـب لم يخـرج مـن الـضرع بعـد.في البدايـة صورتـه و هـو متلبـس في هـذه الشـناعة و عرضـت عليـه صورتـه؛و لمـا كان بشـعاً بمـا فيـه الكفايـة لم يتأثـر أو يسـتجب لأفعالي؛فلكمته..سـددت لـه ضربـة قاتلة..قويـة تحمـل بداخلهـا طاقـة لا متناهيـة مـن الصرامـة الجميلـة.و بالطبـع أنـا المخطـئ و الجميـع هنـا يعـرف ذلك؛بمـا فيهـم الحـرس الـذي أخـذني إلى التحقيـق دون أن أخـذ أجـري.

و هاهنـا تغـيرت مواعيـد نومـي..في السـجن يعاملوننـا ببعـض المحبـة و لكنهـا محبـة عكسـية و تسـلب منَّـا ذواتنـا.إذ يُظهـر الحُـراس المسـؤولون عنَّـا بعـض التعاطف،لكنـه تعاطـف موجـه لشـخص آخـر.إذ أنهـم منـذ سـنوات لم يُسـمح لهـم بزيـارة أمهاتهـم

وأحبتهم؛ لذلك هم يتعاطفون معنا..يقولون إننا مساكين و لنا قلوب رقيقة و يُهرِّبون إلينا طعاماً فائضاً دون أن تعرف الإدارة.

في السجن معي كاميرا.ألتقط صوراً لأناس لم يروا الشمس منذ عقود؛و حينما أتفحص هذه الصور من أجل معالجتها أرى في عيونهم أنهاراً و طيوراً و أقماراً مضيئة.في الصباح تبدو الصور و كأنها مندمجة مع الطبيعة أو أنها الطبيعة نفسها؛و في المساء تبدو الصور ساكنة راكدة جامدة و كأنها لجسد لم ينوِ الله خلقه بعد.و هكذا فإنني أعيش حياة متفردة..مختلفة عن حياة الناس في كلِّ أحواله..تبدو كما لو أنها عدة حيوات قد حُشرت في حياة واحدة. بالأمس صورت سجاناً.عندما وضعت الكاميرا في عيني وجدتُ أنني أصور القضبان..أزحتُ الكاميرا فرأيت السجان..أعدتها مرة أخرى إلى وضعية الالتقاط لكنني رأيت قضباناً.و هكذا مرة تلو أخرى..كانت القضبان تبين وتختفي..تموت في عيني و تعود مرة أخرى إلى الحياة و كأنها تتبادل مع السجان المواقع.و من واجبي كمصور يعتمد على أخلاقيات العمل أكثر من العمل نفسه؛أحجمت مباشرة عن تصوير هذا السجان الذي اتفق معي على أن نهرب معاً في

حـال قمـت بتصويـره؛و بالطبـع أجـد هـذا الـشرط غريبـاً،أو أنـه سـهل إلى درجـة الغرابـة؛و لكـن إذا وضعنا في الحُسـبان أن السـجان ينحـدر مـن قريـة (القطـر قـام) فـإن هـذا يبـدو معقولاً؛لأنهلـم يـر طـوال حياتـه مرآة.كـما أنـه لم يـر وجهـه فيهـا. و لذلـك هـو مندهـش لهـذه الآلـة الصغـيرة المدهشـة العجيبة.يقـول إنـه حينـما يغمـضُ عينيـه لـيرى نفسـه لا يـرى شـيئاً..أخبرته جدتـه أنـه يشـبهها؛لكنه يريـد أن يتحقـق مـن صحـة ذلـك بنفسـه..يريد التقـاط صـورة. الآن أقـضي الجـزء الُمتبقـي مـن عقوبتـي التـي لـولا أخلاقيتـي الزائـدة لكنـت قـد هربـت مـع السـجان و تركتهـا وحدها..أحـاول أيضـاً أن أتـرك هـذه الوظيفـة التـي تجعلنـي أبـدو كطاقـة سـماوية مطلقـة و العيـاذ باللـه. حينـما أضـع الكامـيرا أرى مـا لا يرى..أراقـب كل صغـيرة و كبـيرة أمامي؛مسـجلاً كل شيء عـلى اللـوح المـضيء و هـذا مـا أريـد مفارقتـه لأرتـاح.

خرجـت مـن السـجن برغبـة جادة..أخـذت كامـيرتي و حطمتهـا إلى أجـزاءٍ صغـيرة غـير مرئيـة،و في الليـل عندمـا تمـددت عـلى فـراشي الوثـير و أغمضـت العينـين رأيـت وجهـي متحـولاً إلى كلِّ البورتريهـات التـي صورتهـا.

حديث النائم

الهجوم الذي تعرضت له من قبل الجيش الشعبي في صحراء الموت كان كفيلاً بنسف عشيرة كاملة من الأبطال.لكنني نهضت من موتي مترنحاً بكامل الثبات...متجهاً صوب خيطٍ هزيل.. قائماً على كهف القلب المثقوب بنواعم الحديث.

خطواتي رفيقة الدرب...الدرب رفيق خطواتي و صلواتي متباعدة الأوقات.آخر مرة صليت فيها كانت قبل دخولي للحدود الفاصلة بين ميدان المعركة و مساكن المدنيين الذين استقبلوا جسدي بينهم وقدموا النصح الكثير لأذني الطائشة..كالعادة أكره النصح والإرشاد و اعتبرهما استفزازاً غير مبرر.

دون شعور مني حملت إبريقاً صنعوه من الفخار..توضأت؛نبهني طفل صغير أن الاتجاه الذي أصلي فيه خطأ و يتوجب عليَّ تغييره..عاندته و ظننته يلهيني عن صلاتي القدسية بالوادي المموت طوى.كان هو الآخر أكثر عناداً و تمسكاً بما يريد فعله.

أخرج لوحاً قديماً ثم قرأ خمس آيات ثم دعا ربه ثم قرأ

أحاديـث ثـم ولَّى وجهـه شـطر النجـاة.

سمعته يقول:»فمن لم يستطع فبقلبه...فمن لم يستطع فبيده».

ارتجـف السـمع..تبدلت التوقعات..تغـيرت المؤثرات..تبـددت سـحائب السـماء لترضـع الأرض بدمـي.

قـذف الطفـل صخـرة حجريـة مصوَّبـة بزاويـة الصفر..مباغتـة للانبطاح..مُراقبـة لطـول السـجود.

كنـت سـاجداً وعـلى جانبـي أضـع ذخـيرتي المعبـأة عـلى الكلاشـنكوف...على ذراعـي تزدهـرُ حضـارة القتل..سـكين طويلـة مغمـدة عـلى وطـن مـن جلـد البـشر.

سـأهتف عالياً؛قـررت ذلـك لكـن بهـذا سـتبطُل صلاتي..سـأفتقد عشـيرتي المسلمة..سـأفقد نفـسي بالأحـرى..لا أحـب أن أكـون رفيـق السرعة..دائمـاً أمـارس الـتروي في كل فعائلي؛حتـى في صـلاة الخـوف أكـون في كامـل التـأني..في صـلاة الحـرب لا أخـاف أبـداً.. لا أحـب الهـروب إذا زحـف الجيـش؛ ومـن أجـل ضـمان هـذه النقطـة:

قُـدت الدبابة..وقفـت بهـا بـين صخرتـين ضخمتـين تشـبهان خرطوم

الفيل،أزهقت روحي و قوتي و أنا أحاول دحرجة الصخرتين نحو إطارات الدبابة لتكونا مثبتتين لها و مانعتين للهرب من تقتيل الأعداء.

وقف جيش الأعداء..وقف جيشنا...وقفت شوكة الخوف في حلق أمي التي في البعيد؛لقد مرت سبعة فصول مطرية و أنا لم أذهب أو أرسل إليها رسالة تُوقِف وجيف قلبها.

هتاف..ضجيج مرتب..خليط من المقاتلين..جماعة من أهل المقتول...جماعة من أهل القاتل..جماعة من لا جماعة.

جماعة تبكي دون دمع؛لقد انتهى دمعهم..جفَّت حلوقهم من الهتاف..سكنت في حدود الميادين الحربية جماعة تشبه الموت.. رحلت من المساكن الشعبية جماعة تشبه الحياة.

قال الطفل نيابة عن النعامة:الجبن ليس شيئاً محدداً لأن القاتل قد يكون أكبر جبان في العالم.

قالت النعامة نيابة عنه: إن الله كريم يحب العفو.

قلت أنا نيابة عن الحرب:

لقـد تغـيَّرت أهدافي..مسـاكني أزيحت..ملابـسي أصبحـت رثـة.. السـلاح مـن شـدة مـا ملأتـه و فرغتـه أصبـح يشـكو مـن الجنـون والتعـب.

قالت الحرب نيابة عني:

أنـا التـي علمتـك كيـف تنجـو كل مرة...أنـا التـي علمتـك أن تـترك الصلاة؛هـل تعلـم منـذ أن خرجـت دون علـم المنـزل أصبحـت أمـك تصـلي بسـهو..أبوك تـرك الصـلاة في المسـجد..أختك الكبـيرة تزوجت و أنجبـت طفلـين؛ذات يـوم سـألها طفلاهـا عـن صورتـك المعلقـة عـلى الحائـط فقالـت لهـم إنـك خالهـم.

فسـألا عـن معنـى كلمـة خالهم،قالـت لهـما: «الخـال والـد» و أجهشـت بالبـكاء.

في قلـب المعركـة أخذتنـي إغفـاءة سريعـة و معناهـا أن في البعيـد شـخص يحبنـي و يفكـر فيَّ عنـد تلـك اللحظة..مـرَّ جنـدي بالقـرب منـي وتكلـم وحـده لكنـه كان يقصدني...زمجـرة صوتـه مـن شـدتها تشـعل نـار جهنـم إذا فكـرت في الانطفـاء.

قال لي:هل أنت نائم؟

قلت:نعم

- نم نومك نحن لا نقتل النائمين.

و ذهب لكنه عاد قبل ذهابه.

قال:هل للنائم كلام؟ هل النائمون يتكلمون؟

قلت:لا

أخرج سلاحه ثم قتلني.

الخيبات

خيبة جديدة تُضاف إلى سجل خيباتي. ذهبتُ اليوم إلى ساحة المدينة حيث طلبت إدارة البلدية من المواطنين الحضور.

كانت معي زوجتي التي أكرهها إلى درجة بعيدة،وهي سيدة طويلة حاقدة و جافة،كما أنها أول خيبة تعرفت عليها في حياتي.

كانت الحشود في البدء ساكنة مطمئنة وفي رأس كل فرد منهم نُعاس أبدي و عدم فهم.

دخلنا إلى الساحة وسجلنا أسماءنا على دفتر الحضور والغياب.. قلت نادية يجب ألا ننسى أن الأطفال الذين نربيهم في بيتنا لم يأتوا عبرنا..و لم يأتوا عبر أي أحد،إذا سألونا علينا القول إنهم قادمون من السماء مباشرة.مفهوم؟

قلت: مفهوم.

اسمي نادر المنذور عبد المراوح و خيبتي تدعى نادية بحر

الديـن الطائـر،و قـد شـتمنا موظـف التسـجيل لطـول أسـماءنا و بلاهتهـا. قالـت الخيبـة:

ـ نأسف..نأسف،نحن لم نخترها.

وعندمـا مررنـا مـن أمامـه أخبرتنـي أنهـا تمنـت لـو شـتمته وبصقت عليـه بـدلاً مـن ردهـا الذليـل والوجِـل ذاك؛ وهكـذا هـي حياتنـا رحلـةٌ مـن التمنيـات غـير المحققة..هـذه الحيـاة التـي حشرتنـي بداخلهـا و ضيعـت المفاتيـح.

ومـع أن زوجتـي قـد حققـت إنجـازات لا حـصر لهـا في مجـال العلـوم والحيـاة العامـة، إلا أنهـا تحـس بالنقص..نقـص في كل شيء.. نقـص في الحيـاة.. نقـص في التواصـل والمشـاعر.. نقـص في الحريـة..و نقـص في النظـر إلى الجـمال.

وهـي منـذ اليـوم الأول لزواجنـا تتحـدث عـن أن كل إنجازاتهـا قـد تـزول في أي لحظـة إذا لم نحـترم النـاس، ولكـن تعليقـي هنـا في كونهـا تتـصرف وكأنهـا تتحـرك في حقـول مـن المسـامير، تحـترم النـاس وفي احترامهـا شـكل خفـي يشـبه التأليـه الخائف،فهـو احترام مـن أجـل النجـاة مـن العقـاب المتوقـع أو التجاهـل.

أراهـا وهـي تشـتم النـاس في المنـزل..و عندمـا تضـع الطبـخ عـلى النار..عندمـا تخلـد للنـوم و عندمـا تـراني. و لقـد تحملـت هـذا كلـه حتـى الآن.

كنـت أعـرف أن ماضيهـا هـو السـبب في كل هـذا، أو أن حاضرهـا هـو السـبب الأكـبر، فهـي إلى اليـوم لا تصـدق أنهـا قـد أصبحـت عالمـة في مجـال الطـب، ولا تصـدق أنهـا زوجـة لي، ولا تصـدق أنهـا محبوبـة مـن قبـل مرضاهـا، ولا تصـدق أي شيء.

تجلـس خيبتـي في مكتبهـا بحـذر، وحينـما يدخـل عليهـا مرضاهـا ترتبـك وتغـير جلسـتها كأنهـا كانـت تقـترف ذنوبـاً هائلـة قبـل قدومهـم.

هـي خائفـة.. مذنبـة منـذ الأزل وفي روحهـا قبـح مقيـم. في روحهـا أشـياء جميلـة لا تحـصى مـن فـرط سرابيتهـا وعـدم وضوحهـا، لقـد تزوجتهـا انطلاقـاً مـن محبتـي الطاغيـة لعملي..طلبتهـا ذات مـرة لتـداوي أحـد مرضـاي العصبيين،والـذي تفجـرت جمجمتـه مـن فـرط تقبيلـه المسـتمر للحوائـط.

ولأن مرضـاي النفسـيين لا يملُّـون مـن الحصـول عـلى أمـراض

جسـدية جديـدة، فقـد صـارت تعمـل معـي بـدوام جـزئي, وبعـد فـترة مـن مداواتهـا لمرضـاي اكتشـفتُ حاجتهـا للمـداواة.. رأيـتُ في عملهـا لهفـة.. نفـوراً وكأنهـا تعـزف آلـة موسـيقية لا تجيدهـا.. رأيـت كـم هـي ماهـرة وجاهلـة في الوقـت ذاتـه.. تـداوي بسرعـة كبـيرة ولكـن دون قصـد منهـا؛ فهـي مثـل الـذي لا يسـتطيع تغيـير نظامه..كانـت جثـة حيـة.

ولما كان الأمـر كـما هـو عليـه، فقـد حطـت في رأسي فكـرة.. قلـت لنفـسي وأنـا أعالـج عـدة أنفـس مريضـة مـاذا لـو أضفـت هـذه السـيدة إلى القائمـة.. أريـد أن أعـرف مـا مـدى تأثـير العلـم وارتفـاع الوعـي عـلى النفـس.

قلـت لهـا وهـي تخـرج مـن عنبرهـا الـذي خصصنـاه لهـا مؤخـراً، كيـف تجديـن العنـبر والمـرضى.. هـل المرتـب مجـزٍ.

أسـئلتي هـذه هـي أسـئلة وهميـة، هدفهـا ليـس الحصـول عـلى إجابـات، فهـي بمثابـة مفتـاح لفـض بـكارة الصمـت والانغـلاق، وكل شـخص سـوي كان سيبتسـم ويجيـب بسرعـة متحـولاً إلى موضـوع آخـر أكـثر خفـة وإنسـانية، ولكـن انظـروا.. انظـروا إلى الدكتـورة العظيمـة:

ـ العنبر جيد. 5 أسرَّة كافية جداً. المرضى ملاعين ولكن المخدر يحل المشكلات. والمرتب عظيم، المرتب ممتاز.

ـ المرتب يحترق، أنت وهو.

قلت في سري.. في نفسي التي تعالج المرضى النفسيين.

ولعام كامل كنت أدرسها. أتابعها, أحللها من بعيد، ومع أن الطبيبات اللائي أعرفهن كثر ويفقنها جمالاً ومالاً ودلالاً، إلا أنني اخترتها هي.

قلت لنفسي وأنا أدرس أبحاثي النفسية في مكتبة المدينة الكبيرة، هذه هي.. إنها صالحة للتجارب والبحث والمناقشة وطرح الأسئلة، وهكذا سعيت إليها، هرولت في إثرها، ولما كان التواصل مع شخص مثلها غير ممكن دون مسوغ، فقد تزوجتها.

في يوم العرس رقصنا، كان الرقص في عمومه أشبه برقصة شخص واحد يمتلك آلاف الأجساد.. كانت هنالك زحمة.. كان هناك أطفال يرقصون بلا سبب.. كان جدي ورفاقه يراقبون هذا العبث وفي أعينهم لمعة استفزاز غير مبررة، وكان الطبيب النفسي يراقب، قلت لنفسي:

عـليَّ أن أحتفـل. أنـا ليـس مصنعـاً لإنتـاج العمـل.. أنـا موجـود هنـا كراقـص ومحتفـل وعريـس وليـس كطبيـب نفسي.

ورغم هذا فقد ظللت أراقب:

كانـت ناديـة مسـتعجلة، أسـنانها بـارزة لدرجـة مبالغـة، أعينهـا مشـدودة عـلى هيئـة الضحـك ولكنهـا لا تضحـك، و هـي مـن خـلال نظـرتي لهـا:

تبـدو غـير موجـودة، وكأن هـذا يحـدث مـع شـخص غيرهـا.. كـما لـو أننـا لم نخطـط لـكل هـذا قبـل مـدة.

رقصنـا رقصـة تابعهـا الجميـع وفرحـوا لأجلهـا.. رقصـة اسـمها رقصـة الحـذر والمراقبـة، وهـي رقصـة غايـة في البلاهـة والغرابـة، حتـى أن صديقنـا المؤلـف الموسـيقي المشـترك..علَّق:

ـ يا لروعتكم. أنتم تؤسسون لفن جديد.

وحينما انتهينا، فكرت:

ـ لهذا أكره الموسيقيين الجدد.. فنانون بلا قواعد خلاقة.

وفي السريـر حينـما ذهبنـا للعمـل، تـم كل شيء كـما لـو أننـا نعالـج

مريضاً مشتركاً ونأخذ منه المال.

وبالنظر إلى هذا فإن حياتنا معاً ليست بحياة حقيقة، ويمكنني القول إنها حياة لا تطاق، ولكني أعرف منذ البداية أن العالم كله لا يطاق، والآن هو لا يطاق بشكل أخص.

نصحو لنخلد.. نخلد لنصحو و أمامنا شارع بلا نهاية اسمه الخلود.. أن يقول الناس لقد مرَّ بهذا العالم طبيبان باهران عالمان ليس لهما مثيل، ولكن ما فائدة هذا بدون أن نحسه ونحياه ونتواصل معه.

أتحدث مع زوجتي عن أن إدارة البلدية غير جادة في تكريمها للشخصيات، ورغم دعوتهم لنا بصورة شخصية إلا أن التكريم سيكون مثل المسرحية، سيمنحوننا أموالاً ويصورونا كقرود آيلة للانقراض، وسيرى الناس كيف أننا لا نجيد الحديث بحرية ولباقة.. سيرونك.

في الساحة تحركنا ببطء، كنت أحمل على كتفي الولدين اللذين أنجبناهما دون أن ندري، وكانت خلفي نادية:

يُسلم عليها المرضى الذين يحاولون الوقوف بجانبها ليأخذوا

صوراً معها و ينالوا قسطاً من شهرتها وخلودها المحتمل،وهكذا صرنا في معضلة، ظللنا نمشي وسط الحشود، وبدلاً من صعودنا إلى منصة التكريم عبر البوابة الخاصة، دعتني خيبتي إلى أن نمشي وسط الناس.

قالت إن دخولنا من هنا سيؤكد على تواضعنا، ونحن بالفعل متواضعون، ولكنني انطلاقاً من عملي الذي يلاحقني في كل مكان:

كنت أعرف أنها تحس بالوضاعة.. ترى أننا غير جديرين للدخول من ذات الباب الذي دخلت منه الشخصيات والرؤساء. في نفسها أهداف تناقض الهدف السامي للبشر، أن يحسوا بوجودهم دون أن يدركوا ذلك، أن يرتاحوا من ثقل أنفسهم عبر محبتهم للحياة وللناس.

وصلنا إلى منصة التكريم.. جاء المنظمون بطيور بلا أصوات، قالوا إنها بديل للموسيقى، وقالوا إن الأطباء والمعلمين والمهندسين هم حمامات سلام عالمية، وقالوا إننا مطورو النظام البشري الفعليون، وأكدوا لكل الناس حتى لأولئك الذين لم يحضروا:

ـ 100 ألف دولار لكل حمامة..100 ألف دولار.

ثم طلبوا منا أن نقدم كلمات شكر، أو كما سموها هم كلمات تحفيزية للدولة والمواطنين، وكانت نادية بحر الدين الطائر قد اتفقت معي على الحديث نيابة عنها كزوج لها، أنا نفسي كنت سأطلب منها ذلك إذا لم تفعل، فهي فضيحة.. خيبة رسمية لا تجيد الكلام و اللباقة.

وفي النهاية مرَّ كل شيء بسلام. وعند وصولنا إلى البيت وضعنا المال داخل الخزانة المزدحمة و بدأنا في ترتيب هذه الحياة الفاشلة معاً، ثم نامت الخيبة وبدأت في ترتيبها وحدي.

قلت لنفسي المتصلة بعالم الأمراض النفسية:

ـ العالم أكبر من كل هذه التفاهات.

أنا لم أُخبر المرضى بأن الحياة ممتعة و جديرة بأن تعاش، فجميعهم قد قرروا ذلك بأنفسهم، والآن ها هم يشتمونني.. يسبونني ويلعنون، وهذا هو جزاء الشخص الصامت:

أن يقال له أنت تركتنا للمصائب ولم تهتم، وأكثر من ذلك،

يخـبرني مرضـاي النفسـيين بأننـي سـبب مرضهـم وأننـي أتقـاضى منهـم أجـراً دون عمـل يذكـر، يقولـون:

ـ أنت، ليس لديك عمل سوى أنك تستمع.

والحقيقـة أنـا لا أملـك ردوداً في مواجهـة هـذه الهجـمات، فقـط أقـوم بعمـلي واسـتمر فيـه، اسـتمع إلى خيبـات النـاس وشـكواهم.

وإلى الآن جمعـتُ في روحـي آلاف الخيبـات، وآخرها خيبـة التكريم، وإذا نظرنـا للأمـر بحياديـة فإننـي قـد مـررت بخيبـات كل هـؤلاء النـاس كـما لـو أنهـا تخصنـي، لقـد خلصتهـم مـن خيباتهـم وهـا أنـا أنـام وحيـداً بجـوار خيبتـي. أحـاول النهـوض فـلا أقـدر، أوقـظ زوجتـي لتفحصنـي.

تنهض وتؤدي عملها.. تقول لي:

ـ لا أمل، لقد مات نادر المنذور عبد المراوح.. لقد مت الآن

ما هو الحزن

يسـألني النـاس عـن سـبب حزني.هـذا الحـزن كامـن في الحيـاة نفسـها وهـو سـابق لوجودي..أعتقـد أنـه العنـصر الأسـاسي في بـذرة تكوينـي.

يبـدو الحـزن في ظاهـره كمصيبـة تحتـاج إلى المواسـاة،لكن هـذا خطـأ أو نـوع مـن الجهـل المركـب.

الحـزن هـو حقيقـة ثابتـة ولا تحتـاج إلى توضيـح، بـل علينـا أن نتفحـص أصدقاءنـا السـعداء و نختـبر مقدراتهـم العقليـة ونسـاندهم لتجـاوز هـذه الحالـة التـي تُشـير إلى عـدم الفهـم و الإدراك.

أخـاف عـلى أصدقـائي مـن الجنـون لأن أسـنانهم تبـدو مرئيـة هـذه الأيـام، وانطلاقـاً مـن محبتـي لهـم فإننـي أقـوم بعـدة محـاولات عـلى النطـاق العـام والخـاص، مـن أجـل انتشـالهم مـن مصيبـة الوهـم الفرائحـي التـي قـد حلـت بهـم فجـأة.

في السابق كانت حياتنا تسير على أكمل وجه. ثلاثة أوجه صارمة.. قاتلة، ولو أن جثة رأتنا لنهضت وهي متوجهة نحو حقيقة بعثها. وهي وجوهنا نحن، وجوه متحدة تقوم بتفريغ الحزن على بعضها، حتى تصير أعيننا بركة متعكرة من وعيها الصافي بالحياة.

وهؤلاء نحن! حينما نلتقي نتبادل الخيبات، نتبادل التحايا وندعو لبعضنا بالتوفيق، ثم نبدأ رحلاتنا التدميرية الصادقة.

نتحدث عن الناس وطموحاتهم التافهة السهلة، نتحول من بشرٍ عاديين إلى طاقات حزينة خارقة، ونرتقي من مرتبة إلى أخرى حتى أننا نشعر بالغيرة من الذين يتمتعون بطاقات أعلى، ولا أظن أن هنالك من هو أعلى طاقة منَّا في هذا المجال.

فهؤلاء نحن:

أنا أجلس في بيتي وألعن الناس الذين يحبون بعضهم في المقاهي ويضحكون بلا سبب، وإذا أحسست بأن لعناتي غير كافية لنسف تلك العلاقات ونزع بركتها أقوم بزيارة صديقاي وهما يتكفلان بالباقي.

وإلى الآن مـات بسـببنا خمسـة أزواج.. عاشـقان تبـادلا إطـلاق الرصـاص عـلى جسـد بعضهـما.. عائلتـان سـعيدتان تبادلتـا ذبـح بعضهـم في صبـاح العيـد، بـدلاً مـن ذبـح الشـياه المسـكينة، الوديعـة، الشـاردة بعينهـا في مراعـي الحـزن.

ونحـن نكـره الحـزن. نريـد أن نكـون في حيـاة عاليـة تصلـح للسـمو والعدالـة والعفويـة الحقيقـة وليسـت العفويـة المنظمـة، ومـع أن هـذا كلـه غـير ممكـن عـلى الإطـلاق، لكننـا نحـاول.

نلتقـي في آخـر الليـل ونصـلي. في سـجودنا ندعـو عـلى كل مـن نعرفهـم. ندعـو عـلى أحبابنـا وأعدائنـا عـلى حـد سـواء. نُخـبر الحيـاة بأنهـا غـير مجديـة وأننـا لهـذا السـبب لـن ننتحـر وندعهـا للذيـن جعلوهـا كذلـك.

صديقـاي يحبـان الأحـلام وهـذه هـي مهمتـي التـي أقـوم بهـا، أحـكي لهـم قصصـاً حالمـة.. أقـول:

كان هنالـك فتـى غـير واضـح الأهـداف، يحـرك يديـه في الفـراغ دونمـا خطـة. يمـشي إلى حيـث يتوقـف بـه الـدرب أو إلى حيـث تتـلاشى قدميـه.

كان هـذا الفتـى مُقيـداً منـذ ميـلاده بـآلاف السلاسـل. أولاً بسلسـلة موته.

ثانيـاً بسلسـة ذاتـه، فهـو يريـد أن يحقـق ذاتـه وهـذه أكـبر مصيبة في العـالم.. أقـول لهـما إن ذواتنـا هـي أُس المشـكلة.

نظـن نحـن بغفلـة منَّـا أو بصحـوٍ مبالـغ فيـه، أن ذواتنـا موجـودة قبـل العـالم، وأن العـالم يتحـرك بداخلهـا حتـى تنمـو وهـذا خطـأ؛ ورغـم أننـي لا أعـرف مـا هـو الأصـح ولكنـه ليـس العكـس أيضـاً.

وقـد كان فتانـا ذاك، مقيـداً مـن ناحيـة أخـرى بأحـزان عائلتـه وبحبـه لوطنـه وبـكل هـذه الأشـياء التـي لا يمكـن تحليلهـا بالمنطق والخـروج بنتائـج.

وكان فتانـا ذاك حالمـاً.. كان يظـن أن الحيـاة لقمـة سـائغة مـن الحلـم.. كان يظنهـا أغنيـة قـد ألفهـا آلاف الشـعراء والموسـيقيون.. وكان متأكـداً مـن ذلـك كلـه.

وقـد ظـنَّ نفسـه عصفـوراً يحـط هنـا ويحلـق إلى هنـاك في ثانيـة واحـدة.. يـأكل هـذا ويرفـض ذاك في نقـرة واحـدة.. ينظـر إلى العالم ولا ينظـر إليـه.

وقد نجح الولد في كل ظنونه، ولكن فجأة وبينما هو يجلس على كرسي النجاح، قام شخص بسحب الكرسي على سبيل المزاح، وهكذا سقط الحالم في قبره ونام إلى الأبد.

صديقاي يحبان هذه القصص، إنها تُربِّي بداخلهما الأمل، لكنهما لا ينشدان الأمل في ذاته، فها يترقبان اللحظات الآتية بعده.

ومن كثرة سردي للقصص من هذا النوع، صارا لا يؤمنان بمقدراتي الهائلة على قصف الحياة وتفتيتها كما لو أنها حبة قمح، ولهذا أمرُّ هذه الأيام بحالة من الوحدة غير الطبيعية.. أشغل نفسي بالحصول على أحزان جديدة، فصديقاي واضحان ولا يجاملانني إذا لم أوفق في تحطيمي للحياة، نحن ثلاثتنا لا نخبئ شيئاً والحقيقة عندنا هي الحقيقة، حتى إذا كانت مجهولة بالنسبة لنا.

وقد أخبراني أن أحزاني لا مرحباً بها إذا لم أصقل مواهبي في الأحزان والتحطيم؛ لذا أنا بصدد التنقيب عن قصص ملهمة.. قصص تدفعني إلى الصعود على الدبابة ومراقبة الأفراح العالمية كلها.

وهـذه القصـة غـير موجـودة في الكتـب، غـير موجـودة في الحيـاة، ولا في قلبـي ولا في الشـوارع المزدحمـة.. هـذه القصـة موجـودة هنـا، وهـي قـد تجـاوزت مسـألة إثـارة الأصدقـاء إلى نطـاق أوسـع.

أريد أن أصحو في النوم

في المـرآة لا أرى نفـسي، حينـما أحـدق بتفـانٍ في هـذا الجسـم الزجاجـي المصقـول لا أرى شـيئاً سـواه.. وحدهـا تبـدو المـرآة حينما أحـدق بهـا، وهـذا أمـر مرعـب بـلا شـك ولـو كنـت أمتلـك جهـازاً يسـتطيع القبـض عـلى الـسراب لأتيـت بـه إلى هنـا وتخلصـت مـن هـذه المعضلـة التـي تُضـاف إلى سـجل خيبـاتي المفتوحـة عـلى التعديـل.

أنـا الآن في أيامـي الأخـيرة، وربمـا هـذا محـض شـعور متعجـل وغـير حقيقـي ولكنـه موجـود عـلى كل حـال، وهـو الآن في عينـي يتـلألأ.. في قلبـي يبـدو مرئيـاً لدرجـة الإشـعاع والإبهـار.

وأسـتطيع بـكل سـهولة أن أرمـي بهـذا الإحسـاس عـلى النـاس مـن حـولي.. أقذفهـم بكـرة المشـاعر القاتمـة وأحـول حياتهـم إلى جحيـم، ولكـن هنالـك خيبـة أخـرى وهـي تتعلـق بعـدم وجـود النـاس.. أو بعـدم رؤيتـي لهـم.. أقـول إن حقيقتـي هـي الرؤيـة وحقيقـة الأشـياء أنّي لا أراهـا، فمـن المحـق؟

أريد أن أنهض من سريري المقابل للمرآة.. أريد نقله من هنا فوراً, فطيلة عام كامل كانت هذه المرآة تراقبني في نومي.. تُسجل الأمور الدائرة في لا وعيي وتدونها على زجاجها.. تحتفظ بكل لحظات الضعف التي يمرُّ بها الناس حينما ينامون، وفي أوقات المساء حينما يأتي الزوار تُفصح لهم عن كل شيء.

بالأمس زارني حلم غريب، كانت هنالك مجموعة من القرود تلهو بأنفي.. تتسلق شعري وهي متجهة إلى شعر الفتاة الجالسة بجواري في حديقة لم أرها من قبل.. وكانت تلك القفزات تعجبني للغاية، إذ أنها تساعد بدرجة كبيرة في ستر عيوبي العاطفية التي خُلقت معي منذ البداية.

أنا لا أستطيع الخروج من نفسي إلى النفوس الأُخرى.. نفسي نفسها غير قادرة على استيعابي بداخلها، لكن هذا العيب الخلقي يتضاءل الآن لأن هذا القرد يؤدي أدواراً ممتازة.

لا أعرف كيف يمكن للبشر أن يبدؤوا نقاشاً مع أناس غرباء لولا هذه الأحداث المشتركة والآن فقط أعرف، يتطلب ذلك أن يتخلص الإنسان من وعيه الزائد بحقيقة نفسه.. أن يبدأ الكلام دون أن يحس ببدايته.. وأن يكون قرداً.

فعلاقة جديدة تنمو على المرآة الآن.. شفتي تبتسم ببلاهة وقبل ذلك لم تكن تفعل، والبنت تضحك معي وعليَّ كرجل متحضر أن أبادلها الشعور وأضحك لها, ولكن من الذي يضمن، فربما تضحك لأجل القرد وقفزاته.. ربما تضحك لأجل الموقف نفسه.. وربما لا تضحك على الإطلاق، فقط تُنظف أسنانها مثل لبوة لا تجد ما تأكله وإذا اقتربت أكثر ربما أكون عشاءها لهذه الليلة التائهة.. أعبر دروبها الداخلية وأصير بلا قيمة وأبعد من ذلك أصير كياناً مشوهاً، لا هو نفسه كما كان في البداية ولا هو شيء جديد.

أعتقد أنني إذا تمكنت من الإمساك بخيط الحوار الذي بدأه القرد، سيكون كل شيء على ما يرام. وسأكون في مواضع أختارها بنفسي، ولكن هذا جزء من مشكلة لاحقة، فالبنت ستصير عدماً حينذاك.. تصبح معبراً لأحلامي التي لا تخصها في شيء.. وهكذا على أحدنا أن يكون في المرتبة الدنيا.. وأن يقدم التنازلات ويحتمل حتى يبتلعه احتماله.

(٢)

حينـما أواجـه المـرآة أرى المـاضي.. أرى إيمـاني يتزعـزع بشـأن أمـور كثـيرة.. ثقتـي بالعـالم تتناقـص.. النـاس يتبخـرون مـن دماغـي، يصـيرون غيـماً ويعـودون كأمطـار تصـب عـلى أرض مـن الأسـمنت.

وهذا هو أنا:

أنهـض في كل صبـاح وأسـتقبل الـزوار العائليـين.. أفتـح لهـم البـاب وأفتـح سـجلاتهم في دماغـي.

هـذا أخـي الـذي مـات بسـبب الحـرب التـي انتقلـت مـن سـاحة المعركـة إلى السـاحة الخلفيـة لمنزلنـا وحولـه إخـوتي الثلاثـين الذيـن تدربـت بسـببهم عـلى الوحـدة.. هـذا أبي يحمـل في يـده مـا لا أتبينـه.. يخبـئ بداخلهـا شـيئاً كالمسـتقبل.. يخبـئ سـوطاً.

وهذا هو أنا:

أودع الـزوار وأجلـس في الغـروب وحيـداً.. أراقـب الكائنـات الآخـذة في الأفـول داعيـاً إياهـا لتأخـذني معهـا في رحلـة لعـدة أعـوام.

إذ لابـد مـن انقطـاع ما..غيبوبـة.. مـوت مـع وقـف التنفيـذ.. ولابـد

مـن أشـياءٍ أخـرى لتعديـل أخطـاء المـاضي الـذي يختارنـا دون مشـورة.

(٣)

حينـما أواجـه المـرآة أصـاب بالـشرود.. أنتقـل مـن هنـاك إلى هنـاك مـرة أخـرى، حيـث إن محـاولاتي لتعديـل المـاضي هـي في ذاتهـا عيـش في المـاضي، وإذا لم أتوقـف عـن هـذه المحـاولات سـتمضي بي.. سـتحولني إلى قيامـة تبحـث عـن قاطنيهـا ولـن يتغـير شيء.

و لكن هذا هو أنا:

لا أرى نفـسي.. حينـما أنظـر في المـرآة أرى وجهـاً ولكـن دواخـلي غـير متأكـدة مـن أن هـذا الوجـه مطابـق لهـا أم لا.. دواخـلي مرتبكـة، عـلاوة عـلى كونهـا لا تظهـر بوضـوح إلا في أحـلام النـوم.. لقـد حاولـت جاهـداً طيلـة سـتين عامـاً، أن أصحـو وأنـا نائـم في الوقـت ذاتـه. أن أرى نفـسي بعينـي الخارجيـة.. وأن أكـون موجوداً، ولكنهـا محـاولات بـلا نتيجـة.

فالمـاضي هـو المـاضي.. العـالم هـو العـالم.. وأنـا في المسـافة بينهـما، أسـقط وأهـوي.. أنهـض وأقـاوم.. أقبـض عـلى نتائـج وتفوتنـي

أخـرى.. أتطلـع إلى الحيـاة الهـادرة بالطاقـة والآمـال والعلاقـات..
أقتبـس مـن الحيـاة منطقهـا ومـن المـاضي أقتبـس النسـيان.

مذكرات ضد التشاؤم

(١)

إتـــــزان

اليـوم كان يسـير بصـورة متزنـة حتـى ظننـت أننـي نجـوت مــن الكــدر والمعكــرات لكــن!

فجأة تعكر المزاج لمجرد ظنِّي بأن اليوم جميل.

(٢)

إنــفــكـــاك

اليوم...

قتلتُ نفسي القديمة المتمردة لكن!

أوجدت نفساً أخرى أكثر جدية في التمرد.

(٣)

شـمـعـة الــروح

اليوم قررت أن أنتحر ولكن!

تراجعت عن الفكرة لسبب وحيد هو أنني أكره الظلام.

كتبت هذا على حائطي بالفيسبوك.

أحد الأصدقاء الحميميين علق بمعنى أن خذ معك شمعة.

فكرت في الأمر ولكن!

قلت لنفسي: ماذا إذا انطفأت الشمعة.